جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
بنات القاهرة
شعبة اللغة العربية - قسم البلاغة والنقد

براعة استهلال الصحابة في مراثيهم للنبي ﷺ

إعداد
د/ فريدة محمد على
أستاذ مساعد ورئيس قسم البلاغة والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات القاهرة

١٩٧٠

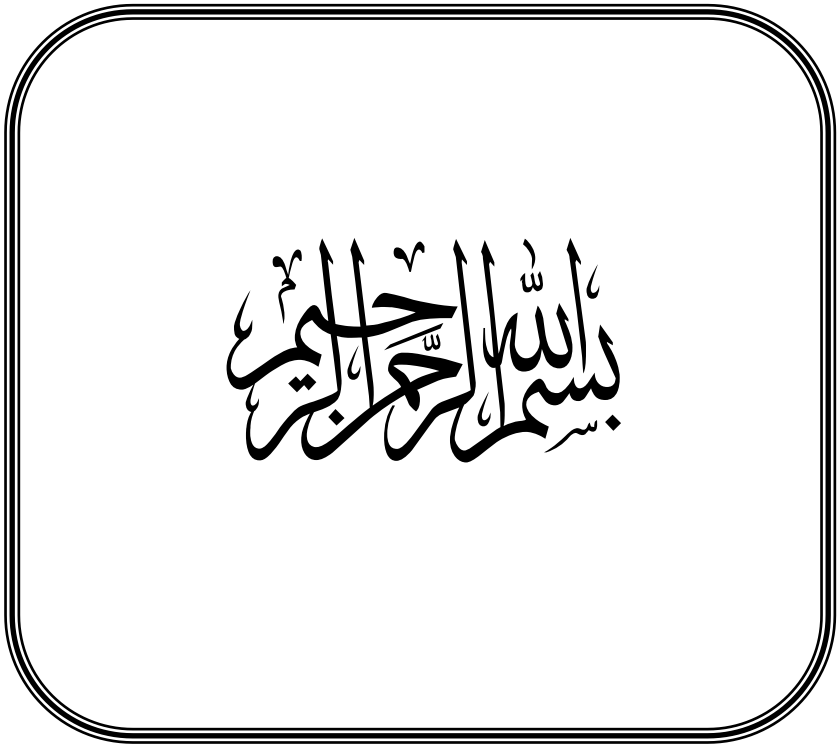

١٩٧١

١٩٧٢

عَنْ أَنَسٍ ﷺ، قَالَ: " لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي قَدِمَ فِيهِ رَسُولُ اللّه ﷺ الْمَدِينَةَ، أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَقَالَ: " مَا نَفَضْنَا عَنْ رَسُولِ اللّهِ ﷺ الْأَيْدِي حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا "[1].

(١) مسند الإمام أحمد، مُسْنَد: الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ، مُسْنَد: أَنَس بْن مَالِك ﷺ، حديث رقم: ١٣٨٣٠، ٣٣٠/٢١، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة ـــ بيروت، ط٢، ١٤٢٠هـ، وقال المحقق: إسناده قوي على شرط مسلم.

١٩٧٤

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد...

فإن شعر الرثاء قديمٌ قدم المآسي والأحزان التي تعصف بالقلوب، وقدم الموت الذي يخطف الأحباب، ويلفهم بالأكفان، وقدم الهموم التي تعتلج في الصدور، وتطيش بالأذهان.

وأعظم مصيبة أصابت المسلمين قاطبة هي مصيبة فقْد الرسول ﷺ بعدما أكمل الله الإسلام، وأظهره على الدين كله، فعظمت لذلك مصيبة المسلمين، فذهب النبي ﷺ ووراءه الصحابة الكرام الذين انتصروا للدين، وساعدوا في رفع رايته، فلم تزدهم وفاة النبي ﷺ إلا قوة في الإيمان، وإن كانت قلوبهم قد اكتوت حرقة وألمًا، وتمنوا لو استطاعوا فداءه بأعز ما يملكون، فهاجت خواطرهم، وعبروا عن مكنونات صدورهم في أشعار تنطق بالحب الصادق، واللوعة والحرقة على الفراق، وكأن مداد مرثياتهم دماء قلوبهم، لا دمع عيونهم.

والحزن والأسى عند فقد الأحبة أمر فطري جبلت عليه البشرية، ويعقب الحزنَ دمعٌ تذرفه العيون، ويتساقط على الوجنات دون سيطرة على إيقاف سيله المنهمر.

وما دامت تلك المشاعر والأحاسيس لا يوجد فيها ما يُغضب المولى ﷻ؛ فلا يوجد أي تشريع يمنع الحزن والبكاء.

وقد سار نبينا الكريم وأصحابه الكرام وفقًا لما تقتضيه الفطرة الإنسانية، فهذا رسول الله ﷺ يحزن ويذرف الدمع على وفاة ابنه إبرهيم، ويتأسى بقوله :" إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ" (١) .

(١) صحيح البخاري، أبو عبد الله البخاري الجعفي، ٨٣/٢، كتاب: الجنائز، بَاب: قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ، حديث رقم: ١٣٠٣، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١٤٢٢،١هـ.

ومن قبل رأينا الحزن والدمع ذهب بعين سيدنا يعقوب على فقد ابنه يوسف، رغمًا عن كونه يعلم من الله ما لا نعلم ، قال تعالى:" وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ "(١).

كما بكت السيدة صفية حمزة ﷺ، ورسول الله ﷺ يشاركها البكاء، ويقول:" لَنْ أُصَابَ بِمِثْلِك أَبَدًا"(٢)، "وعَنْ أَنَسٍ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، نَعَى زَيْدًا، وَجَعْفَرًا، وَابْنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ، قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبَرُهُمْ، فَقَالَ: أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ، فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ، وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ"(٣)، "وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: زَارَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ، فَبَكَى وَأَبْكَى مَنْ حَوْلَهُ..."(٤)، فإذا كان هذا شأن من اختاره الله للرسالة، ووهبه من قوة العزم، وصدق النية، وأطلعه على كثير من أسرار هذا الكون يحزن لألم الفقد؛ فكيف بالناس الذين فجعوا بفراق الأحبة؟!.

والقرآن الكريم يُربي النفس على الصبر والتأسي بسيد الخلق، ولا ينكر ما تفعله الخطوب، بل يرشد الإنسان إلى الصبر، والرجوع إلى الله تعالى بقوله ــ عز وجل ــ: "وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ "(٥).

---

(١) سورة يوسف ، من آية: (٨٤).

(٢) المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري المعروف بابن البيع، باب: ذِكْر إسلام حمزة بن عبد المطلب، حديث رقم:٤٨٨١، ٢١٤/٣، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية،بيروت، ط١، ١٤١١ه ــ ١٩٩٠م.

(٣) صحيح البخاري، كتاب: أصحاب النبي ﷺ، باب: مَنَاقِب خَالِد بْن الوَلِيد ﷺ، حديث رقم: ٣٧٥٧، ٢٧/٥.

(٤) صحيح مسلم، كتاب: الجنائز، بَاب: اسْتِئْذَان النَّبِيِّ ﷺ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّهِ، حديث رقم: ١٠٨، ٦٧١/٢، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي ــ بيروت.

(٥) سورة البقرة، آيات رقم: (١٥٥: ١٥٧).

وقد سبقت هذه الدراسة بدراسات عديدة في رثاء النبي ﷺ، لم يرد فيها أكثر من جمع المراثي، ورسالة ماجستير منشورة بعنوان "المراثي النبوية في أشعار الصحابة ــ توثيق ودراسة"، محمد شمس عقاب، مكتبة الإمام البخاري، ١٤٣٤هـ ــ ٢٠١٣م، عنيت بجمع المراثي وتوثيقها، وذكرت بعض خصائصها الفنية، ولم يكن لها ولا لغيرها دراسة بلاغية خاصة بالمطالع.

ولقد اعتمدت على هذا الكتاب في المادة العلمية، ولم أقف كثيرًا عند توثيقه للأشعار، وصحة نسبتها إلى قائلها، فكل ما وجهت إليه اهتمامي أنه شعر قيل في رثاء النبي ﷺ، دون الاهتمام بتوثيق نسبته.

وأخذت في جمع مطالع تلك المراثي بعد دراسة القصائد كاملة، وصنفتها وفقًا لما عبرت عنه، وأبنتُ عن الأساليب البلاغية التي حملت هذه الأغراض، مبرزة قيمة الألفاظ التي عبر بها الشعراء والأساليب المستخدمة، كما أبنتُ عن نوع الجملة، ودورها في إبانة المعنى والأصوات، وما قدمته من دلالة، فضلًا عن الدلالة المعجمية لبعض الألفاظ والصيغ، ثم أفردت مبحثًا خاصًّا لخصائص الاستهلال، وما تميز به استهلال مراثي الصحابة عن استهلال القدماء في مرثياتهم، والخصائص البلاغية التي ظهرت في المطالع.

لذا كان هذا البحث في مراثي الصحابة للنبي ﷺ؛ لنتأسى بهؤلاء الصالحين في مقابلتهم هذه المصيبة التي ابتليت بها الأمة الإسلامية، وكان اختيار الاستهلال خاصة؛ لكونه الزفرة الأولى، ومفتاح القفل الذي أبان عن مشاعرهم، وأفصح عن مكنوناتهم، فجاء البحث بعنوان: (براعة استهلال الصحابة في مراثيهم للنبي ﷺ).

وحاول البحث معرفة إحساس الفقد الذي عبر عنه الصحابة في مستهل مرثياتهم، وماذا فقد كل منهم بفقده للنبي ﷺ؟، وما الأساليب والعبارات والألفاظ التي كانت لها القدرة في الإبانة عن تلك المشاعر؟.

وجاء البحث في مقدمة أبانت عن فكرة البحث، وتمهيد تناول بإيجاز مفهوم براعة الاستهلال، ومفهوم الرثاء، وعددٍ من المباحث، هي:

جاء الأول: الاستهلال بذكر خبر المصيبة والفاجعة بموت النبي ﷺ .

والمبحث الثاني: الاستهلال ببيان أثر المصيبة بفقده ﷺ على الراثي.

والمبحث الثالث: الاستهلال بالنداء.

والمبحث الرابع: الاستهلال بالقسم.

والمبحث الخامس: الاستهلال بأداة التنبيه.

والمبحث السادس: الاستهلال بالاستفهام.

والمبحث السابع: الاستهلال ببيان حالة الأمة بعد النبي ﷺ .

والمبحث الثامن: خصائص استهلال الصحابة في رثائهم للنبي ﷺ.

ثم تأتي الخاتمة، وتحوي أهم النتائج التي توصل إليها البحث، يتبعها قائمةٌ بأهم المصادر والمراجع.

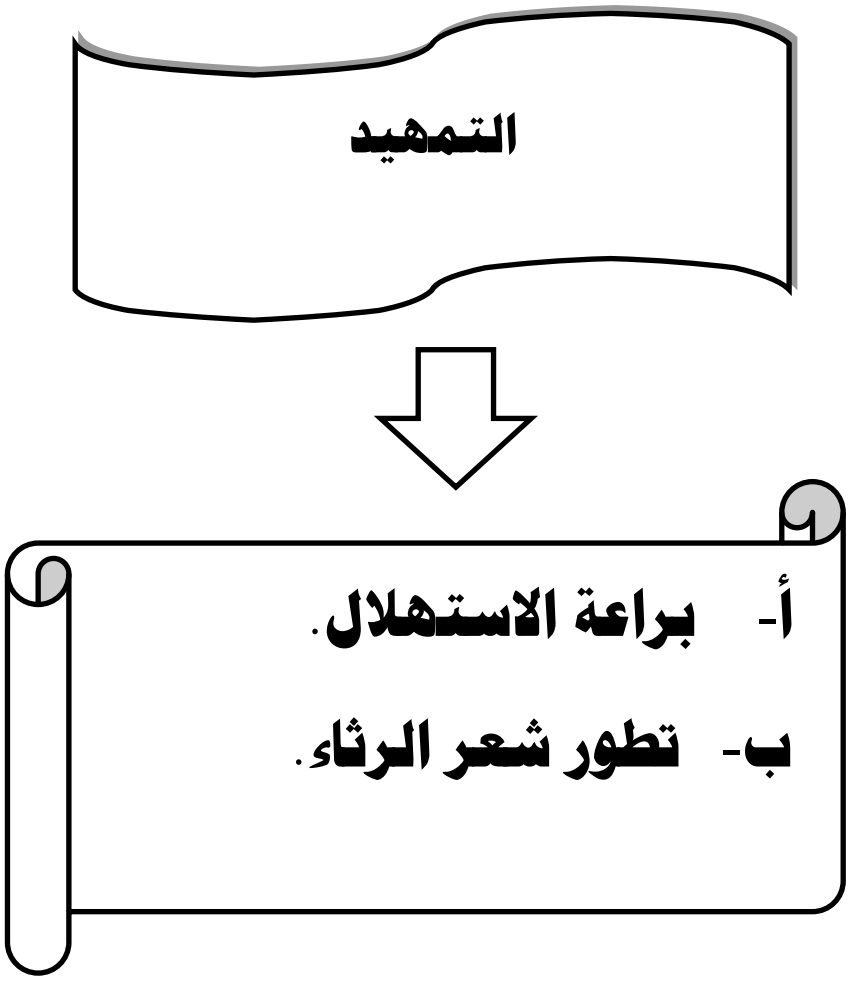
التمهيد
أ- براعة الاستهلال.
ب- تطور شعر الرثاء.

براعة الاستهلال

إن مطلع القصيدة هو أول ما تقع عليه عين القارئ؛ لذا حظيت المطالع بعناية العلماء، فأبو هلال العسكري يذكر مقالة بعض الكتاب "أَحْسِنوا معاشر الكتاب الابتداءات؛ فإنهن دلائل البيان، وسئل بعضهم عن أحذق الشعراء... فقال: من يتفقد الابتداء والمقطع"(١).

وجعل ابن الأثير حقيقة براعة الاستهلال، أن يجعل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالًا على المعنى المقصود من ذلك الكلام: " إن كان فتحًا ففتحًا، وإن كان هناء فهناء، أو كان عزاء فعزاء"(٢)، وكانوا يعدون الشعر قفلًا " أول مفتاحه"(٣).

وهذا يعني أن مطلع القصيدة هو المفتاح الذي يولج إليها به، والنافذة التي ينظر إليها منها، والعنوان الذي يهدي إلى الطريق المراد الوصول إليه.

ويرى شفيق جبري " أن المطلع مفتاح القصيدة، إذا وقع في يد الشاعر هجم على موضوعه، ويذكر أن الشاعر كثيرًا ما كان يلوب يومين أو ثلاثة في انتظار فجر ذلك المطلع، الذي كان يتعذر حينًا، لكنه إذا ما جاءه على النحو الذي يرضيه هانت القصيدة"(٤).

إن مطلع القصيدة هو أول ما يقع في السمع، فيلزم أن يكون أول طارق غاية في الحسن والجمال، فاستهلال القصيدة بمنزلة الوجه والغُرَّة، يعطي علامة ودليلًا لما بعده.

---

(١) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، ص٤٨٩، تحقيق: د/ مفيد قميحة، دار الكتب العلمية- بيروت ، ط٢، ١٤٠٩ه.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ، ص ٦٣٧ تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية- بيروت، ١٤٣١ه-٢٠١٠م.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني، ٢١٧/١، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة- القاهرة، ط٣، ١٩٦٣م.

(٤) أنا والشعر ، شفيق جبري، ص٦٤، الشركة المتحدة للنشر والتوزيع، ١٩٨٦م.

ووضع العلماء لبراعة الاستهلال معايير وضوابط منها[1]:

١- ما يرجع منها إلى الألفاظ:

من حسن في اختيار مادتها، وخلوها من العيوب، واستواء في نسجها، وتشاكل اقتران، فلا تأتي في مستهل القصيدة بألفاظ ينبو كل منها عن صاحبه.

٢- ومنها ما يرجع إلى المعاني:

ويراعى في ذلك تطبيق القاعدة البلاغية المشهورة "مطابقة الكلام لمقتضى الحال"، فلا بد للمطلع أن يكون مناسبًا لموضوع القصيدة، ومع من تقال فيه.

٣- ومنها ما يرجع إلى النظم:

من إحكام في بنيته، وإبداع في صيغه، ومراعاة العلائق بينهما، وفقًا لمعايير وضوابط علم النحو.

٤- ومنها ما يرجع إلى الأسلوب:

من حسن مترع، ولطيف منحى ومذهب، وملاك الأمر في جميع ذلك ما ذكره حازم القرطاجني " أن يكون المفتتح مناسبًا لمقصد المتكلم من جميع جهاته، فإذا كان مقصده الفخر، كان الوجه أن يعتمد من الألفاظ والنظم والمعاني والأسلوب ما يكون فيه بهاء وتفخيم، وإذا كان المقصد النسيب، كان الوجه أن يعتمد منها ما يكون فيه رقة وعذوبة من جميع ذلك..."[2].

وفي ظل هذه المعايير عابوا مطلع قصيدة ذي الرُّمة في عبد الملك بن مروان[3]:

---

(١) ينظر: عيار الشعر: محمد بن أحمد بن طباطبا، ١٢٢، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي ـــ القاهرة، د.ت، وكتاب الصناعتين، ٤٨٩، ومنهاج البلغاء وسراج الأدباء: حازم القرطجاني،٣٠٩، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، تونس، ١٩٦٦م.

(٢) منهاج البلغاء، ص٣١٠.

(٣) ديوان ذي الرمة، ص١٠، قدم له وشرحه: أحمد حسن بسبح، دار الكتب العلمية ـــ لبنان، ط١، ١٤١٥هـ ـــ ١٩٩٥م.

مَا بَالُ عَينِكَ مِنْهَا المَاءُ يَنسَكِبُ • كَأَنَّهُ مِنْ كُلًى مَفْرِيَّةٍ سَرِبُ

لكون المخاطب بهذا البيت هو عبد الملك بن مروان، وكان بعينه رمش، فهي تدمع أبدًا، فتوهم أنه عرّض به، وأمر بإخراجه.

كما عابوا عددًا من مطالع قصائد المتنبي في كافور، خاصة في أول لقاء له، من مثل قوله[1]:

كَفَى بِكَ دَاءً أنْ تَـرَى المـوْتَ • وَحَسْبُ المَنَايَا أنْ يَكُنَّ أمَانِيَا

وأكثر ما عني النقاد بمراعاة المطالع في قصيدة المدح؛ لأن تجنب العيب فيها آت من " باب التأدب للملوك" ــ فيما يقول ابن رشيق[2] ــ وراجع إلى أدب النفس، لا إلى أدب الدرس"[3].

فإن افتتاح قصيدة المدح يلزم أن يحترز فيها مما يوجب التطير من ذم الزمان، ووصف الديار بالدثور، والمنازل بالعفاء، وإنما يحسن استعمال ذلك في الخطوب النازلة، والنوائب الحادثة.

وخصصت الابتداءات بتلك العناية وذلك الاهتمام؛ لكونها أول ما يطرق السمع من الكلام، فإذا جاء الابتداء حسنًا لائقًا بالمعنى الوارد بعده، توفرّت الدواعي على استماعه، وأقبل السامع على القصيدة منشرح الصدر، عالي الهمة، " فالمفردات الخاصة في المطالع قد تكون من وسائل استكشاف المقصود"[4].

---

(١) ديوان المتنبي، ص ٤٤١، دار بيروت، ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م.

(٢) العمدة، ٢٢٢/١.

(٣) المثل السائر، ٢٢٤/٢.

(٤) علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم (دراسة بلاغية نظرية وتطبيقية)، أ.د/ إبراهيم الهدهد، ص٥٦٢، مكتبة الإيمان ــ القاهرة، د.ت.

ومن خلال تلك المعايير السابقة لحسن المطالع، اشترط البلاغيون في المطلع شروطًا إذا جاء موافقًا لأحدها فهو جيد، وإلا كان رديئًا، وهي.

١) أن يكون مناسبًا لموضوع القصيدة.

٢) أن يجتهد فيه عما يتطير منه إذا كان الكلام مدحًا.

٣) أن يكون مطلعًا فخمًا، له روعة، وعليه أبهة.

٤) أن يكون حسن السبك صحيح المعنى، " وهو شرط في كل الكلام".

٥) أن يتشابه أول القصيدة وآخرها نسجًا ونظمًا وفصاحة[١].

وصنف القرطاجني جيد المطالع إلى ثلاث رتب:

الرتبة الأولى:

ما تناصر فيه حُسن المصراعين وحسن البيت الثاني، كقول المتنبي[٢]:

لِعَيْنَيْكِ مَا يَلْقَى الفُؤادُ وَمَا لَقِي • وَللحُبّ مَا لَمْ يَبْقَ مِنّي وَمَا بَقِي

وَمَا كنْتُ ممّنْ يَدْخُلُ العِشْــقُ • وَلكِنّ مَنْ يُبْصِرْ جُفُونَكِ يَعْشَقِ

والرتبة الثانية:

أن يتناصر الحسن في المصراعين، دون البيت الثاني، كقول أبي الطيب المتنبي[٣]: (من الخفيف)

أُتُرَاهَا لِكَثْرَةِ العُشّاقِ • تَحْسَبُ الدّمْعَ خِلقَةً في المَآقِي

والرتبة الثالثة:

أن يكون المصراع الأول كامل الحسن، ولا يكون المصراع الثاني منافرًا له، وإن لم يكن مثله في الحسن من مثل قول امرئ القيس[٤]:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ • بِسقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدِّخُول فَحَوْمَلِ

---

(١) بناء القصيدة في النقد العربي القديم (في ضوء النقد الحديث): د/ يوسف حسين بكار، ص ٢٠٧، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ــ لبنان، ط٢، د.ت، وعلاقة المطالع بالمقاصد، ص ٢١.

(٢) ديوان المتنبي، ص ٣٤٥.

(٣) ديوان المتنبي، ص ٢٣٦.

(٤) ديوان امرئ القيس، ص ١١٠، ضبطه وصححه: أ/ مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، ط٥، ١٤٢٥هـ ــ ٢٠٠٤م.

فالمصراع الأول في غاية الإبداع، ونهاية الانطباع، ولا يجاريه فيه أحد فيما يجب أن يفتتح به القول في البكاء على الديار، وليس المصراع الثاني كذلك، وإن كان له قسط في الفصاحة.

ولا يعتبر في حسن المبادئ ما وقع الإحسان في مصراعه الثاني إذا كان المصراع الأول قبيحًا[1]، فكان حازم يعول على المصراع الأول في اعتبار جودة الابتداءات.

ومصطلح الاستهلال أو الابتداء أو الافتتاح تتوارد على ألسنة كثيرين وإن كان ابن رشيق قد أطلق مسمى المطلع على افتتاح القصيدة، والمطلَع بالفتح هو الطلوع، والمطلِع بالكسر هو الموضع الذي تطلع منه الشمس، ويقال: اطّلَعْتُ الفجر اطلاعًا أي: نظرت إليه حين طلع، وطليعة الجيش أوله الذي يبعث يطالع أخبار العدو، ومطّلعُ مكان الاطلاع من موضع عال"[2].

لذا كان مطلع القصيدة هو نورها الكاشف عن غرضها، وطريقة نظمها، وحسن سبكها، وجمال نغمها.

وهو الفنارة التي ينظر من خلالها إلى القصيدة، وبداية بزوغ الضوء الذي يهدي إلى الطريق، فالدلالة المعجمية لهذا المصطلح تهدي إلى تلك الأهمية والعناية التي أولاها علماء البلاغة إلى جودة المطالع، وبراعة الاستهلال.

ولو بحثنا في الدلالة المعجمية لمصطلح الاستهلال، نجده يفصح عن معنى البداية، فالهلل أول المطر، يقال: استهلت السماء وذلك في أول مطرها، واستهل الصبي بالبكاء: رفع صوته وصاح عند الولادة، وكل متكلم رفع صوته فقد استهل، والإهلال بالحج: رفع الصوت بالتلبية[3]، وبداية كل شهر هو هلاله، فإذا كان المعنى

---

(١) ينظر: منهاج البلغاء، ص٣١٠،٣١١.

(٢) لسان العرب لابن منظور، مادة: (طلع)، دار صادر ــ بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

(٣) لسان العرب، مادة: (هل).

المعجمي للاستهلال هو بداية الكلام بصوت مرتفع، فإن ذلك يتماشى مع بداية القصيدة بداية قوية معربة عن مضمونها، ولو نظرنا إلى معنى استهلال المولود، وأن صرخته الأولى التي يبدأ بها مشوار حياته تسمى استهلالًا، كذا استهلال القصيدة بداية لمشوارها، وإفصاح من الشاعر عن رحلة جديدة، ومشوار أطلقت إشارته الأولى، وهو الاستهلال.

وحسن الافتتاح داعية الانشراح، ومطية النجاح، فالمطلع يوصل إلى المنهج، ويرسم معالم الطريق، ويصور النسق الفكري للمتكلم، وأحيانًا تفوق المطالع والمقدمات الكتب والقصائد شهرة؛ لأنها تحمل رؤية شاملة، لا معرفة محدودة[1].

إن براعة الاستهلال تكمن في كون المطلع كاشفًا عن الغرض الذي يساق إليه، وهذا يبدو واضحًا جليًّا إذا كان مطلع القصيدة غير مقصدها، أما في غرض الرثاء، فندر أن تفتتح القصيدة بمطلع يغاير الرثاء، وفي موضوع بحثنا براعة استهلال الصحابة في رثاء النبي ﷺ لم نقف على أي من القصائد التي افتتحوا مراثيهم بمطلع مغاير للرثاء.

فبدت دراسة الاستهلال غير واضحة العلة، لتعذر الفروق في الغرض بين الاستهلال والمقصود الأساسي من القصيدة، فلا تبدو هناك فوارق في الأغراض تستدعي الربط بينها دراسة وافية.

ولكن حاجة هذا البحث إلى دراسة استهلال تلك المراثي تكمن في معرفة تلك الدفقة الأولى، والصرخة المدوية التي أنطقت صحابة النبي ﷺ، وأي الألفاظ قويت ألسنتهم على النطق بها؟، وما مثلته تلك الألفاظ من إحساس كل منهم بما يفقده بفقد النبي ﷺ، وما هي الدلالات التي حملتها الألفاظ في أول إعلان عن المشاعر والأحاسيس؟، فمن خلال الاستهلال تستطيع أن تدرك إلى أي مدى

---

(١) النذير العريان، د/ محمد أبو موسى، بحث للأستاذ الدكتور مصطفى السواحلي ضمن مجموعة بحوث مهداة للشيخ أبي موسى بمناسبة تجاوزه الثمانين، ص ٥٨٢، قدم لها: أ.د/ إبراهيم الهدهد، مكتبة وهبة ــ القاهرة، ٢٠٢٠م.

استطاع الصحابة أن يتمالكوا زمام أنفسهم، وأي ألفاظ اللغة طاوعتهم في التعبير عن ضمائرهم الملتاعة، كما حاول البحث من خلال دراسة الاستهلال معرفة أقوى التراكيب وأبرز الأساليب التي استجمع الصحابة بها قوتهم، وخرجوا إلى المسلمين بها معلنين عن رثائهم للنبي ﷺ .

وكان الصحابة في مراثيهم يذهبون في مطالعهم مذاهب شتى، وكما يقول ابن رشيق: " للشعراء مذاهب في افتتاح القصائد"[1].

فمنهم من بغته الحزن، فلم يجد مفتتحًا خيرًا من ذكر نبأ البلاء الذي ألم به، ومنهم من وصف أثر المصيبة عليه، فلم يهنأ بنوم ولا غمض له جفن، ومنهم من استهل مراثيه بالنداء كعادة الكثير من الشعراء الجاهليين، ومنهم من استهل مراثيه بالقسم؛ توكيدًا على حرقة أفئدتهم لفراق الحبيب ﷺ ، ومنهم من يفتتح مراثيه ويستهلها بأداة التنبيه ليحشد النفوس ويهيئها لتلقي ما سيأتي في القصيدة من رثاء، ومنهم من يهتم لأمر المسلمين، فيستهل مرثيته ببيان المخاطر التي تحوط بالأمة الإسلامية بعد وفاته ﷺ [2].

وسأعرض في هذا البحث هذه المطالع التي تناولها الصحابة في مراثيهم؛ محاولة إبراز الدواعي إلى هذه المطالع، والأساليب والتراكيب التي حملتها من خلال دراسة هذه المطالع، ومحاولة استجلاء مراميها ومغزاها .

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق، أبي علي الحسن القيرواني الأزدي، ٢٢٥/١، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل – بيروت.

(٢) ينظر المراثي النبوية في أشعار الصحابة توثيق ودراسة: محمد شمس عُقاب، ص٤٧٤، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع ــ القاهرة، ط١، ١٤٣٤هـ ــ ٢٠١٣م.

أ- تطور شعر الرثاء

قال ــ تعالى ــ :"وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ "(١).

"وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ جِبْرِيلَ ــ عَلَيْهِ السَّلَامُ ــ عَنِ اللَّهِ ــ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ــ، قَالَ: "إِذَا وَجَّهْتُ إِلَى عَبْدٍ مِنْ عَبِيدِي مُصِيبَةً فِي بدْنِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ ذَلِكَ بِصَبرٍ جَمِيلٍ، اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ أَنْصبَ لَهُ مِيزَانًا، أَوْ أَنْشُرَ لَهُ دِيوَانًا"(٢).

لقد استقبل السابقون الخطوب استقبالًا متباينًا، فمنهم من فارق الحياة بمجرد فراق الحبيب، ومنهم من هام على وجهه في الصحارى لا يعرف له وجهة، ولا يهتدي إلى طريق، ومنهم من تبلد وفقد الإحساس والقدرة على التعبير عن حزنه، ومنهم من تحمل هذا الخطب الجلل، ومنعه كبرياؤه أو خوفه من الشامتين من إظهار حزنه.

فلو تتبعنا الرثاء، وطرق التعبير عن الفقد، في العصور المختلفة، تتبعًا سريعًا، لنقف على حقيقة صورته في البحث الذي نحن بصدده، نجد أن:

الرثاء في العصر الجاهلي(٣):

لون من التعبير عن المشاعر الإنسانية؛ لذا نجده يتفق في باعثه في جميع العصور

---

(١) سورة البقرة، آية رقم: (١٥٥).

(٢) مسند الشهاب: أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي القضاعي، حديث رقم: ١٤٦٢، ٣٣٠/٢، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط٢، ١٤٠٧ه – ١٩٨٦م، وقال العراقي في تخريجه: أخرجه ابْن عدي من حَدِيث أنس بِسَنَد ضَعِيف. ينظر: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار ، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي، ١٤١٢ه، دار ابن حزم، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.

(٣) ينظر: الرثاء في الشعر الجاهلي: د/ محمود حسن أبو ناجي، ص ١٩، مكتبة الحياة، بيروت ــ لبنان، ط٢، ١٤٠٢هـ.

وإن اختلفت طرق التعبير عنه، فجاءت صورة الرثاء في العصر الجاهلي واضحة قوية، وكان القتل والحث على الأخذ بالثأر أهم دوافع الرثاء، وأقوى بواعث الحزن والألم التي تنفتق عنها ألسنتهم بأقوى العبارات، وأدق الألفاظ، بخلاف الموت الذي اتفق معظم شعراء الجاهلية على أنه أمر لا بد منه، ولا يمكن لأحد أن ينجو منه، يقول الممزق العبدي: (من البسيط)

هَلْ لِلْفَتَى مِن بَناتِ الدَّهْرِ مِنْ وَاقِ • أَمْ هَلْ لَهُ مِن حِمَامِ المَوْتِ مِنْ رَاقِ

واختلط شعر الرثاء عند شعراء الجاهلية بالحكمة الصائبة، وأنطقتهم فواجع الفقد بالرأي السديد، ودفعتهم إلى التفكير العميق.

وفي موضع آخر، يقول الممزق العبدي، في رثاء نفسه، رثاءً يفيض حكمة وتسليمًا، وشكوى من الزمان: (من البسيط)

قَدْ رَحَّلُوْنِي وَمَا رُحِّلْتُ مِنْ شَعَثٍ • وَأَلْبَسُوْنِي ثِيَابًا غَيْرَ أَخْلَاقِ
هَوِّنْ عَلَيْكَ وَلَا تُوْلِعْ بِإِشْـــفَاقِ • فَإِنَّمَا مَالنا لِلْوَاحِدِ البَاقِي
كأَنَّنِي قد رَمَانِي الدَّهْرُ عن عُرُضٍ • بِنَافِذَاتٍ بِلاَ رِيشٍ وأَفْوَاقِ

وكثيرًا ما نرى في تعبير الجاهليين عن أحزانهم تصويرًا لصورة الأرق والقلق والحيرة، مما نزع النوم من عيونهم، وأفقدهم الراحة والدعة، فيقول امرئ القيس[1]: (من المتقارب)

أَرِقْتُ لبَرْق بلَيْل أَهَلّ • يُضيءُ سَنَاهُ بأَعْلَى الجَبَلْ

وهي صور تناولها الشعراء في مختلف العصور؛ تعبيرًا عن الإحساس ذاته، وتعددت صور الرثاء ما بين رثاء عام للملوك والسادة وأشراف القوم، أو رثاء خاص كرثاء الآباء والأبناء، والأزواج والأصدقاء، وإن كان رثاء الأشخاص أقواها عاطفة،

(١) ديوان امرئ القيس، ص ١٤٠.

فقد عدوه نكبة من نكبات الدهر، أذلت معه حياتهم، وهدت أركانهم، ونسفت قواعدهم، ومرجع ذلك إما لعامل نفسي؛ لتغلب الشعور بالفقد، والخسارة على ذويهم، وإما لعامل اقتصادي؛ لفقد العائل والسند الذي كانوا يحتمون به من غوائل الزمن، وكان مصدرًا وحيدًا للإنفاق عليهم، والتراث العربي مليء بنماذج من مراثي الجاهلين، التي أبدع فيها الشعراء، وجادت قريحتهم لأعذب الألحان، ويبدو فيها الصدق الفني والأخلاقي والحزن الذي يتجدد مع مرور الزمن، وتظهر فيها الحكمة بفناء الحياة والأحباء.

إلا أن الرثاء في العصر الجاهلي ـــــــ على الرغم من شيوع مكارم الأخلاق في نعت الشعراء للميت ـــــــ، إلا أنهم لم يكونوا يعتقدون في عودة الميت بعد فراق الحياة، فضلًا عن تحريضهم على الأخذ بالثأر والتمثيل بالقتلى، وترديدهم الكثير من العبارات المنافية لتعاليم الإسلام من شق للجيوب، ولطم للخدود، ودعوات الجاهلية في النواح والبكاء.

وبصفة عامة نستطيع أن نؤكد على أن شعر الرثاء كان وما يزال من أصدق الأشعار، ونعلل لذلك كما علل له الأعرابي الذي سئل عن سبب ذلك فقال: لأننا نقولها وقلوبنا محترقة.

الرثاء في العصور الإسلامية[1]:

وإذا سلمنا بأن الباعث على الرثاء هو الألم المفجع والنفس المكلومة من فقد عزيز وغال، نستطيع القول بأن الفرق بين شعراء الرثاء في العصور المختلفة لم يكن في معينه وباعثه، وإنما كان في كيفية تناوله، وفي العبارات التي استخدمها شعراء كل عصر.

ويعد الرثاء في صدر الإسلام أصدق أنواع الرثاء، ولا يسعنا إلا أن نستحضر مراثي الصحابة للنبي ﷺ ـــ موضوع هذه الدراسة ـــ وكيف تجلت في تلك المراثي التعاليم الإسلامية، فصوروا لنا مصيبة المسلمين تصويرًا هزّ المشاعر، وخلع القلوب، غير أن المعاني

(١) ينظر: الرثاء في الشعر العربي (جراحات القلوب)، د/ محمود حسن أبو ناجي، ص١١، جامعة الملـــك عبد العزيز، دار مكتبة الحياة ـــ بيروت، ط١، ١٤٠١ه.

الإسلامية تبدو واضحة في كل مراثيهم، وإن ظهرت عاطفة الحزن على الفقيد، كما شاع في عصر الجاهليين.

ونلحظ أن شعراء العصور الإسلامية كانوا يتعزون عن أمواتهم بأن مصيرهم التنعم في جنات الخلد، واحتساب أمواتهم عند الله ﷻ.

وكثرت المفاهيم الإسلامية لدى شعراء العصور الإسلامية، وأشادوا بفضل موتاهم، وفضائلهم الأخلاقية والإسلامية، والكف عن كشف عورات القتلى عملًا بالهدي النبوي لقول الرسول ﷺ " اذْكُرُوا مَحَاسِنَ مَوْتَاكُمْ "(١).

ومن صور الرثاء التي برزت في العصور الإسلامية رثاء الشخصيات الإسلامية العامة، كالخلفاء والولاة، والشهداء في الغزوات والسرايا.

ولو انتقلنا إلى العصر الأموي(٢):

لوجدنا أن العصور الإسلامية تُعَدُّ امتدادًا لبعضها، فلا نجد اختلافًا في رثاء الأمويين عن صدر الإسلام من حيث الشكل أو المضمون؛ لقرب الصلة بين العصرين، بل إن عصر بني أمية يُعد جزءًا من عصر صدر الإسلام، فكثير من الصحابة أو أبنائهم عاشوا في العصرين، وكان الدين في قلوبهم ما زال حيًّا نابضًا، فحياة الرسول وهديه ما زال في وجدانهم قائمًا، فصبغت أشعار الأمويين في مراثيهم بالصبغة الإسلامية، الظاهرة من التأسي والاقتداء بسيد البشر، وصبره على الخطوب يوم وفاة ابنه إبراهيم، ومن قبله أهله الكرام وبعض الصحابة ـــ رضوان الله عليهم ـــ، وكان رثاء الحسين ﷺ ، وصحابة رسول الله ﷺ، وخلفاء بني أمية ميدانًا فسيحًا تجلت فيه براعة شعراء المراثي في هذا العصر.

---

(١) أخرجه الترمذي، وقال: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، سَمِعْتُ مُحَمَّدًا يَقُولُ: عِمْرَانُ بْنُ أَنَسٍ الْمَكِّيُّ مُنْكَرُ الحَدِيثِ، وَرَوَى بَعْضُهُمْ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ عَائِشَةَ. وَعِمْرَانُ بْنُ أَبِي أَنَسٍ مِصْرِيٌّ أَقْدَمُ وَأَثْبَتُ مِنْ عِمْرَانَ بْنِ أَنَسٍ الْمَكِّيِّ. الجامع الكبير – سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك الترمذي، أبواب الجنائز، حديث رقم: ١٠٤٩، ٣٣٠/٢، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ١٩٩٨م.

(٢) ينظر: الرثاء في الشعر العربي (جراحات القلوب)، ص ١٣٨.

صورة الرثاء في العصر العباسي:

إن سلمنا بتقارب الرثاء في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي من حيث الشكل والمضمون، إلا أن صورته في عصر الدولة العباسية قد تغيرت كثيرًا؛ نظرًا لتأثر الشعراء في ذلك العصر بثقافات متعددة من فارسية ورومية؛ لذا جاءت صور الرثاء يشوبها بعض الاختلاف عن العصر الأموي، وإن اتفقت معه في تأثر الشعراء بالروح والتعاليم الإسلامية، كما ساروا على نهج الأمويين في الجمع بين التعزية والتهنئة للأمراء.

فقد صور الشعراء قتلاهم في ليالٍ مليئة بالسرور والمُدَام والفرح، وهذه الصورة لم نعهدها من شعراء العصور السابقة، فيقول الشاعر إبراهيم بن أحمد الأسدي في رثاء الأمين:

هَكَذَا فَلْتَكُنْ مَنَايَا الْكِرَام • بَيْنَ نأيٍ وَمُزهِّر ومُـــدَام

بَيْنَ كَاسين أردتاه جَمِيعًا • كَاس لِذَاتِه وَكَاس الْحمام

ومزجت المراثي بالحكمة، وشاعت بعض الفلسفات التي تحث على التسليم بالقضاء والقدر، وغلبت على مراثيهم سحر المعاني، وفخامة الأساليب، وإن صبغت بالحكمة والعقل في بعض جوانبها.

صورة الرثاء في العصر الأندلسي:

لقد كانت الحياة في الأندلس ذات طبيعة خاصة، وكانت رحى الحرب دائرة بينهم وبين الأسبان ودول أوروبا المسيحية، ثم تواصلت تلك الحروب بين العرب أنفسهم، وتمزقت أوصال الأندلس إلى دويلات صغيرة، "وأخرج العرب منها، وتم الفتك بهم في محاكم التفتيش التي كانت من أفظع ما مر على التاريخ الإنساني، فأبدع شعراء الأندلس بوجه خاص في رثاء الأندلس، وذلك الملك الغابر الذي كان نورًا لأوربا كلها، فأجادوا رثاء الممالك الإسلامية بلدًا بلدًا، وحصنًا حصنًا، مثل صقلية وقرطبة وغرناطة، كما أبدعوا في رثاء الطبيعة الفاتنة الساحرة

التي كانت تلهم العقل والتفكير، وتلين العاطفة، وترقق بالوجدان"[1]، فيقول ابن شُهَيد في رثاء قرطبة[2]:

مَا فِي الطُّلُولِ مِــنْ الأَحِبَّــةِ مُخْبِــرُ • فَمَن الَّذِي عَنْ حالِهــا نَسْــتَخْبِرُ؟
يا جَــنَّــــةً عَــصَــفَــتْ بِهَا • رِيــــــــحُ الــنَّــــــــوَى

صورة الرثاء في العصر المملوكي[3]:

إذا كانت الحياة في العصر الأندلسي قد كست مراثيهم بطبيعتها الساحرة، فالأمر في العصر المملوكي جاء معاكسًا تمامًا؛ فحكام العصر المملوكي لم يكونوا عربًا يهتمون بالعلوم والآداب؛ لذا انحطت الآداب في عصرهم انحطاطًا شديدًا، و لم يظهر نوابغ من الشعراء كما في العصور السابقة، بل سار شعراء هذا العصر يحاكون الشعراء السابقين في فنونهم، وكانت صورهم باهتة؛ لانعدام الفكر المتجدد.

وافتقد الرثاء الحرارة والعناصر اللازمة لإثارة الوجدان والأحزان، وكانت العاطفة باهتة جامدة، فضلًا عن غلبة المحسنات البديعية، والزخارف اللفظية التي تنافي الصدق في العاطفة الحزينة، فيقول شمس الدين الكوفي في رثاء بغداد[4]: (من الكامل)

إِنْ لَمْ تُقَرِّحْ أَدْمُعِي أَجْفَانِي • مِنْ بَعْد بُعْدِكُمُ فَمَا أَجْفَانِي!
يَا لَيْتَنِي قَدْ مُتُّ قَبْلَ فِرَاقِكُمْ • وَلسَاعَةِ التَّوْدِيعِ لاَ أَحْيَانِي

---

(١) ديوان ابن شُهَيد الأندلسي، ص١٠٩، جمعه وحققه: يعقوب زكي، راجعه: د/ محمود علي مكي، دار الكاتب العربي ــ القاهرة، د.ت.

(٢) ينظر: الأدب الأندلسي، د/ أحمد هيكل ص ٤١٥، دار المعارف ــ مصر.

(٣) ينظر: الرثاء في الشعر العربي (جراحات القلوب)، ص ٢٠٣.

(٤) شعر شمس الدين محمد الهاشمي الكوفي، ص ٢٧، جمع ودراسة: د/ حسين عبد العالي اللهيبي، مركز دراسات الكوفة ــ جامعة الكوفة، ٢٠٠٩م.

الرثاء في العصر الحديث:

انطلاقًا من مبدأ أن الشعر مِرْآة للعصر، وأن كل عصر يصبغ شعره بصبغة خاصة، فإن العصر الحديث الذي غلب عليه الجانب المادي، قد اكتسى بذلك الجانب المادي، وتغيرت النظرة الرثائية للحياة والأحياء.

وإن اتفقنا على أن الرثاء يتناول عاطفة إنسانية خالدة على مر العصور والأزمان، إلا أن الأشكال والصور تتغير تبعًا لما استحدث في كل عصر ومصر من أحداث، وما خالطه من حضارات جديدة، فالشاعر صورة لعصره، ومرآة عنه، يصف لسانه ما تراه عيناه، ويمثل حافظ إبراهيم شعر الرثاء أصدق تمثيل، فقد عد شاعر عصره لهذا الغرض؛ لكثرة مراثيه، ووصفه لأهوال العالم ونكباته، فهو شاعر قاسى مرارة الحرمان والأسى في طفولته وشبابه، والتظى بالشقاء والمرارة، والعذاب، والبؤس، خلافًا لشوقي الذي عاش في بلاط القصر مُنعمًا، فلو قرأنا شعرًا لحافظ يرثي أستاذه وصديقه الشيخ محمد عبده، فيقول فيه[1]:

سَلامٌ عَلَى الْإِسْلَامِ بَعْـدَ مُحَمَّـدٍ • سَلَامٌ عَلَـى أَيَّامِـهِ النَّضِـرَاتِ
عَلَى الدِّينِ وَالدُّنْيَا عَلَى الْعِلْمِ وَالْحِجَا • عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى عَلَى الْحَسَنَاتِ
لَقَدْ كُنْتُ أَخْشَى عَادِيَ الْمَوْتِ قَبْلَهُ • فَأَصْبَحتُ أَخْشَى أَنْ تَطُولَ حَيَاتِي

فقد ربط حافظ بين ماضٍ سعيد بحاضر حزين، ففقد الإمام محمد عبده يعد مصابًا للدين والدنيا والبر والتقوى، ولهذا يشارك كل محزون بحزنه، ومهموم بهمه.

"ولحافظ بعض المراثي التي اتسمت بطابع إنساني بحت، كرثائه لملكة إنجلترا (فيكتوريا)، ورثائه (تولستوى)، ويرثي فيه الجانب الإنساني حيث كان عونًا للفقراء، فيقول[2]:

---

(١) ديوان حافظ إبراهيم، ص ٤٥٨، ضبطه وصححه وشرحه: أحمد أمين وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ١٩٨٧م.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٧٨.

رَثاكَ أَميرُ الشِعرِ في الشَرقِ وَاِنبَرى • مَدحِكَ مِن كُتّابِ مِصرَ كَبيرُ
فَقَد كُنتَ عَوناً لِلضَعيفِ وَإِنَّـــني • ضَعيفٌ وَما لي في الحَياةِ نَصيرُ
وَلَستُ أُبالي حينَ أَبكيكَ لِلوَرى • حَوَتكَ جِنانٌ أَم حَواكَ سَعيرُ

فهي مرثية إنسانية الطابع، فلسفية الأسلوب، بديعة التراكيب"[1]، تعطي انطباعًا عن مراثي العصر الحديث.

وبهذا يتبين لنا ــ بما لا يدع مجالًا للشك ــ أن الرثاء فن اتحدت بواعثه، وإن اختلفت طرائق التعبير عنه باختلاف العصور، وما ساد في كل عصر من اختلاف في المناحي الثقافية والسياسية والأخلاقية، وما كان باعثنا لذكر تطور فن الرثاء على مر العصور في بحثنا هذا إلا الرغبة في الغوص في أعماق هذا الفن، الذي جسَّد عاطفة من أصدق العواطف الإنسانية، حتى إذا وقفنا على موضوع البحث بانت لنا الصورة، وما فيها من اختلاف في التناول، وطرق العرض، وصدق العاطفة، وإن كان الفقد في كل العصور والدهور مخالفًا للمفقود الذي رثاه شعراء الصحابة في موضوع بحثنا.

***

(١) الرثاء في الشعر العربي (جراحات القلوب)، ص٢١٦، ٢١٧.

المبحث الأول

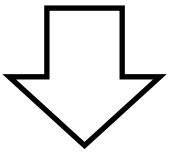

الاستهلال
بذكر خبر المصيبة والفاجعة
بموت النبي ﷺ

١٩٩٥

إنَّ مِنَ الصحابة مَنْ بغته الحزن، وأطبق على قلبه الألم، وأطبق على صدره الحنين، فلم يجد ما يبدأ به مرثيته إلا نبأ البلاء الذي ألم به.

فما أشد فراق الحبيب لحبيبه! وما أقسى وداع الصاحب لصاحبه!، سطر ذلك الصديق في رثائه لسيد الخلق ﷺ بقوله[1]: (من الكامل)

لَمَّـــــا رَأَيْـــــتُ نَبِيَّنَـــــا مُتَجَـــــدِّلًا[2] • ضَاقَتْ عَلَيَّ بِعَرْضِهِنَّ الدُّورُ

وَارْتَعْـــــتُ[3] رَوْعَـــــةَ مُسْـــــتَهَامٍ وَالِـــــهٍ • وَالْعَظْمُ مِنِّي وَاهِنٌ مَكسورُ

نرى الصديق قد اتكأ على الشرط ليعبر عن فادح الخطب؛ معربًا عن إحساسه، وشدة ألمه، عند رؤيته النبي ﷺ حال وفاته، وكأن الضيق الذي تملّكه انعكس على الفضاء المحيط به، فانطبقت الجدران على جسده، فهو يعاني من ضيقٍ داخليّ متمثِّلٍ في إحساسه بتلك الكارثة التي لا يملك دفع ثقلها عن نفسه، وضيقٍ خارجيٍّ متمثِّلٍ في إحساسه بضيق الدور من حوله؛ لخلوها من حِبّه وصفيّه محمدﷺ، وعطف على جملة الجواب جملة ثانية واصفًا بها حاله كاشفًا عن مدى صدمته، مشبهًا ذهوله من هول ذلك الموقف بروعة ذلك المستهام الواله الذي أعياه الحب، وأفقده القدرة على امتلاك مشاعره، والخوف يتملكه، والفزع يملأ قلبه، كذلك المحب العاشق، الفزع لفراق محبوبه.

وإذا كان هذا هو حال قلبه ومشاعره، فالأمر لا يختلف كثيرًا في باقي جسده، فعظامه أصابها الضعف والوهن لتلك الفاجعة المدوية.

وكان من تمام إظهار الفاجعة تعبيره بـــ (نَبِيَّنَا) دون اسمه ﷺ، فخطبه خطبان: أحدهما بفقْد صاحبه وخليله وحِبّه، والثاني بفقْد النبي ﷺ والهادي والنذير.

---

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٣٧.

(٢) المنجدل: الملقى على الأرض. لسان العرب، مادة: (ج د ل).

(٣) ارتاع خوفًا وهلعًا. المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ٢٠٠٤م.

وفي هذا المطلع ما يبرز حالة أبي بكر عند ابتلائه بفقد النبي ﷺ، وإن خلت الأبيات من القوة والإجادة، مما دفع بعض النقاد إلى التشكيك في نسبتها إلى أبي بكر ـــ بل أنكروا أن يكون له شعر مطلقًا ـــ أقول: إن الموقف الذي قيلت فيه لا يترك للبيب الأريب أي قدرة على الإجادة، فهي زفرات نفس كادت أن تفيض حزنًا وكمدًا على فراق الحبيب، وتجويد الشعر وتنقيحه يستدعى ذهنًا صافيًا، وعقلًا ممسكًا بزمام أفكاره وعباراته، فهو مطلع يفيض حزنًا، ويعتصر ألمًا.

وها هو عبد الله بن سلمة يذكر مصيبته بفقد النبي ﷺ قائلًا[1]:(من الخفيف)

إِنّ فَقْـــدَ النَّبِـــيِّ صَـــرِّعَنَا اليَـــوْ ● مَ، فَدَتْهُ الأَسْمَاعُ وَالأَبْصَارُ

وَفَدتْـــهُ النُّفُـــوسُ، لَـــيْسَ مِـــنَ المَـــوْ ● تِ فِرَارٌ، وَأَيْنَ أَيْنَ الفِرَارُ؟

بجملة خبرية مؤكدة، حيث أبان لنا شاعرنا عن مصيبته بفقد النبي ﷺ، وأثر ذلك الفَقْد عليه.

وكانت شدة الموقف الذي يعانيه الشاعر مناسبة للتشديد الذي جاء في قوله: (صَرِّعَنَا)، وفي التقييد بالظرف (اليَوْم) ما يدل على تخصيص يوم الوفاة بما حلّ بهم من الصرعة.

ثم أبان الشاعر عن أمنيته أن لو استطاع أن يفدي النبي ﷺ بكل ما يملك من سمع وبصر، بل إنه تخطى أمنيته إلى أمنيات قومه، فجاء بطريق الجمع، فقال: (الأَسْمَاعُ وَالأَبْصَار)، ولما أحس أن الأسماع والأبصار غير كافية لفداء النبي ﷺ أجمل ما سبق تخصيصه، فقال: (وَفَدتْهُ النُّفُوس) بكل جوارحها وخلجاتها، ثم سرعان ما أفاق وأدرك أن الأمر قد قضي، ولا يجدي فيه فداء، فعادت نفسه عن أمنياتها،

---

(١) قدم عبد الله بن أبي سلمة على أبي بكر بعد وفاة النبي ﷺ في نفر يمنيين ، فكان مما قاله:" يـــا معشـــر قريش، إنكم لم تصابوا بنبي الله دون العرب؛ لأنّه لم يكن لأحد دون أحـــد، وأيم الله إني لا أدري أي الرجلين أشد حزنًا عليه، وأعظم مصابًا به: من عاينه فغاب عنه عيانه، أو من أشرف على رؤيته فلـــم يره". المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص١٧٧، ٢١٥.

وأقرت الحقيقة المؤلمة، فلجأ إلى النفس ليوقظها من أمنياتها، فقال: (لَيْسَ مِنَ المَوْتِ فِرَار)، ألم يكن مناسبًا لما سبق من أمنيات أن تكون أفاقته عما تمناه، ونفيه يسلط على تلك الأماني، فيقول: (لَيْسَ فِي المَوْتِ فِدَاء؟) ربما يكون الشاعر قد أدرك أن المقصد من وراء أمنيته السابقة هو فراره من الإقرار، والاعتراف بموت النبي ﷺ، فلما أفاق أدرك عدم المقدرة على الفرار من هذا الأمر ولا مهرب منه، فأكد ما ذهب إليه في الجملة الأولى من انتفاء الفرار من الموت، بجملة استفهامية لغرض إنكار الفرار، فقال: (وَأَيْنَ أَيْنَ الفِرَار؟)، وكان في تكرار أداة الاستفهام ما يوحي بحجم الحسرة، وألم الفقد الذي يعانيه الشاعر، وللتكرار إيحاء بتكرار الألم والحزن الذي يعيشه المسلمون.

وفي جملة الاستفهام (أَيْنَ أَيْنَ الفِرَار؟) وما حوته من تكرار لأداة الاستفهام (أَيْن) تنفيس عما في النفس من أحزان وهموم، فقد سبق وأن أعلن فداء النبي ﷺ بسمعه وبصره، بل بالأسماع والأبصار جميعًا، إلا أنه سرعان ما عاودته نفسه، فخاطبها متسائلًا: أين أين الفِرار؟، فهي عبارة النهاية التي لا مراء فيها ولا جدال، نهاية لأمنياته ورغباته في الفداء، فهو التسليم لا محالة، بجملة تذييلية أوصدت على الأمنيات أبوابًا من العجز والصبر والتسليم.

***

وها هو عمرو بن العاص الذي علم بموت النبي ﷺ، حين أتاه الناعي وهو في إمارته، فأشجى قلبه، وانفلت يبكي رسول الله ﷺ بقلب يعتصره الألم من شدة الحزن، فيعبر عن هذه الفاجعة بقوله[1]: (من الكامل)

صَدَعَ القُلُوبَ مَقَالَةُ الحُدَّانِي ● ونَعَى النَّبِيَّ خَمِيصَةُ بْنُ أَبَانِ

لَمَّا نَعَاهُ والْحَوَادِث جَمَّةٌ ● يَبِسَ اللِسَان وَفَاضَتْ العَيْنَانِ

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ١٢٥.

استهل ابن العاص حديثه عن وفاة النبي ﷺ بأثر ذلك على قلبه؛ فقد صدع قلبه ذلك الخبر الموجع، وكأنّ قلبه زجاجة قد كسرت، ولا سبيل لمداواته، كما أنّ الزجاج المكسور لا يلتئم كسره، وفي تقديم المسند ما يوحي بشدة تأثره، وما حل بقلبه من ألم دفين، وتعبيره عن أثر الصدع بالجمع (القُلُوب)؛ لمشاركة قلوب المسلمين جميعًا لقلبه في أثر الفقد، ولربما توهم الشاعر أن له أكثر من قلب، صدع واحدًا بعد الآخر.

وجعل مقالة الحدانى هي فاعل الصدع، ولم يصرح بداية بما اشتملت عليه تلك المقالة؛ لصعوبة النطق بهذا الخبر، فلم يطاوعه لسانه أن ينطق بها، ثم لم يجد بُدًّا من التصريح بسبب ذلك الصدع، فقال عاطفًا على الصدع ما هو سبب فيه: "ونعى النبي ﷺ ...." فألمه مضاعف؛ ألم الفقد، وألم الغربة، وعدم تمكنه من توديع النبي ﷺ ورؤيته عند وفاته.

ثم أبان عن أثر آخر لنعي النبي ﷺ، وإن كان الأثر السابق حلّ بقلبه، على الرغم من كثرة الحوادث في الحياة، إلا أن مصيبتنا أجل من كل المصائب، مصيبة عقد من هو لها اللسان وعجز عن النطق، فكل مفردات اللغة عاجزة عن التعبير بما يعتلج الصدور ويكوي الأفئدة، بل إن أثر تلك المصيبة أفاض العيون بالبكاء، وفي التعبير بالفعل (فَاضَت) ما يوحي بكثرة الدموع، وعدم القدرة على إمساكها، والتوقف عنها، واستعير الفيضيان لكثرة الدموع وتتابعها استعارة تبعية تصريحية، وربما شبهت عينها بالبحر في تدفقه على سبيل الاستعارة المكنية.

كما أن المطابقة بين تأثر اللسان (يبس) وتأثر العين (فَاضَت) أوحى بشدة وقع المصيبة عليه، فانعقاد اللسان عن الكلام دليل على عدم الرغبة في الحياة، وصعوبة الموقف، وشدته، كذا فيضان العين بالدمع لما اعتراها من حزن، وألم لا يملك معه السيطرة على انسكاب الدمع.

***

وفي موضع آخر عبر عمرو بن العاص عن مصيبته بفقد النبي ﷺ فقال[1]:

أَتَانِي وَرَحْلِي فِي عُمَانَ مُصِيبَةٌ ● فَبِتُّ وَعَيْنِي طَرْفُهَا طَرْفٌ أَرْمَدِ

غَدَاةَ نَعَى النَّاسُ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ● فَأَعْزِزْ عَلَيْنَا بِالنَّبِيِّ مُحَمَّــدِ!

وهذا عمرو بن العاص وهو ناءٍ عن رسول الله ﷺ ومدينته لما وصل إليه نعي رسول الله ﷺ، جاءه الخبر كالصاعقة التي أحلت به، ونسي مَنْ جاءه بالخبر، وكأنه جاء بنفسه، فقال:(أَتَانِي) دون (بلغني) أو (وصل إلي)؛ لأن الإتيان يتطلب المأتي به، ولكن شاعرنا جعل المصيبة آتية بنفسها، فهو لم يهتم بمن أتاه بها، ثم سرعان ما صور لنا حالته إزاء هذه المصيبة الآتية، فها هي عينه من شدة ما قرّحها من دمع سخين؛ حزنًا وكمدًا على النبي ﷺ، طرفها أشبه بطرف عين المريض بالرمد، وخص الطرف دون سائر العين لشدة ظهور أثر الرمد على الطرف، فأبرز لنا هذا التشبيه إحساس الشاعر، وما يعانيه من قلق وحيرة بعد غياب نور النبوة، كما يتخبط من يعاني من الرمد في ليل عماه، فآثر ابن العاص استهلال رثائه للنبي ﷺ بالحديث عن حاله، وما أصابه عشية وصول خبر وفاة النبي ﷺ، ثم أردف ذلك بما هو سبب وعلة لتلك الحالة، فقال:(غَدَاةَ نَعَى النَّاسُ النَّبِيَّ مُحَمَّدا)، وعند كشفه وتصريحه بوفاة النبي ﷺ أسند (النَعي) إلى (النَّاس) جميعًا، فهو خبر جلل وحديث مدوٍ لم يتناقله شخص دون غيره، فقد أهم وأغم الجميع، وهذا ما أفادته لام الاستغراق في (النَّاس).

وعبر بوصف النبي ﷺ أولًا ليعظم فقده، ويعم نعيه الناس جميعًا؛ لافتقادهم الهادي، والمعلم، والبشير، والنذير، ثم أبدل من لفظ (النبوة) (مُحَمَّدا) موضحًا لبشريته ﷺ، وحتمية انقضاء أجله كسائر البشر.

---

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ١١٩.

وبتلك الجملة الخبرية لفظًا، الإنشائية معنى، التي يدعو فيها للنبي ﷺ بالعزة فيقول: (أَعْزِزْ عَلَيْنَا)، ثم أعاد ذكر صفة الفقيد واسمه، فقال: (بِالنَّبِيِّ مُحَمَّد)، وإن كان إعادة ذكره ﷺ ما يستلذ به، إلا أنه في هذا الموقف يعيد الذكر لاستدرار الألم والحزن، ويهيج مشاعر الفقد، والإحساس بالفاجعة.

وكان استهلال ابن العاص رثاءه للنبي ﷺ بهذين البيتين استهلالًا حسنًا، لما جاء بعدهما من أبيات ذكر فيها ما فقده الناس بفقد النبي ﷺ، فبدأ أولًا بذكر مصابه، ثم ذكر نعي الناس للنبي ﷺ، وما مثله ذلك لهم.

***

ولو انتقلنا إلى عامر بن الطفيل الأزديّ[1] نرى ما استهل به رثاء النبيﷺ، حيث يقول[2]: (من الخفيف)

بَكَتِ الأَرْضُ وَالسَّمَاءُ عَلَى النُّو ● رِ الَّذِي كَانَ لِلْعِبَادِ سِرَاجَا

هذا الشاعر اليمني الذي تقطر قصيدته حبًّا وحنانًا مما جادت به قرائح أهل اليمن، هؤلاء الشعراء الذين قاموا قومة رجل واحد زمن الردة، يثبتون أشياعهم على دين الإسلام، ولم تجمع شعراء اليمن حادثة كما جمعتهم حادثة وفاة النبي ﷺ.

وشاعرنا هذا يستهل ما وصل إلينا من قصيدته بمشاركة الأرض والسماء له في أحزانه، فالحزن والكمد الذي يسري في أوصاله أشعره بمشاركة كل المخلوقات له في هذا الحزن الدفين، وجمعه بين الأرض والسماء يجعل ما بينهما داخلًا في هذا الحدث الذي حققه تعبيره بالماضي (بَكَت)، وقد ثبت أن السماء والأرض تبكيان على الصالحين مصداقًا لقول الحق: "فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ

(١) هو عامر بن الطفيل بن الحارث الأزدي. الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر أحمد بن علي العسقلاني، ٣/١، تحقيق: محمد على البيجاوى، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢ه.

(٢) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٢١٣.

مُنظَرِينَ"[1]، ولم يكتفِ شاعرنا بجعل الأرض والسماء إنسانًا يبكي، ولكنه جعل بكاءهما على النور، فالنبي ﷺ نور محض، وكيف لا يصفه بذلك، وهو ما وصفه به ربه، فقال:" ٱ بى بي تر نُورٌ وَكِتَٰبٌ تن"[2]، فهو يبكي بفقده ذلك السراج المنبعث من نور النبي ﷺ، ونوره ﷺ تصوير للهداية التي أخرج الناس بها من ظلمات الجهل، والكفر، والشرك.

وشاعرنا لم يحظَ بالعيش في كنف النبي ﷺ، ولم ينعم بجواره الشريف، وأشد ما يفتقده بفقده هو ما كان يصل إليه من تعاليمه، وهديه، ومنهج سنته ﷺ، فضلًا عن الألم الذي يعتصر قلبه؛ لعدم ارتوائه من معينه العذب، كما فاز بذلك إخوانه.

وفي تقديمه للجار والمجرور (لِلْعِبَاد) ما يفهم منه بيان نعمه ﷺ للعباد، ومدى افتقادهم له، وشدة احتياجهم إليه، وكان الشطر الثاني من البيت بمنزلة العلة والسبب لما جاء في الشطر الأول من بكاء السماء والأرض لفقده ﷺ.

***

(١) سورة الدخان، آية رقم: ٢٩.

(٢) سورة المائدة ، من آية رقم:١٥.

وهذا شاعر آخر من شعراء اليمن، وهو سواد بن قارب[1]، يعبر عن أثر فقد النبي ﷺ عليه، فيقول[2]: (من الكامل)

جَلَّتْ مُصِيبَتُكَ الغَدَاة سَوَادُ ● وَأَرَى المُصِيبةَ بَعْدَهَا تَزْدَادُ

استهل حديثه بتلك الجملة الخبرية التي جرد فيها من نفسه شخصًا آخر يبثه حزنه ويشكو إليه ما يعتلج صدره من ألم دفين، وما يحس به من حزن يَجْسم على صدره، فموت النبي ﷺ مصيبة لا تدانيها مصائب، فهي مصيبة عظيمة فتت في عضد الأمة، وكثيرًا ما نلمح ذكر زمن المصيبة في رثاء الصحابة للنبي ﷺ، كما هو الحال هنا (الغَدَاة) وهم لا يقصدون زمنًا بعينه، ولكنهم قصدوا بذلك الزمن الذي وصل إليهم فيه نعي النبيﷺ.

وينتقل شاعرنا إلى الحديث بضمير التكلم ملتفتًا عن الخطاب، وربما كان قد تحقق له شيء من بث زفرات نفسه وشكواه إلى ضمير المخاطب الذي جرده من نفسه، فلما تحقق له ذلك الأمر عاد إلى نفسه وعبر بضميره، فقال: (وَأَرَى المُصِيبةَ بَعْدَهَا تَزْدَادُ)، وربما لاحت له بعض أمارات الردة التي انتشرت في بعض البلاد عقب وفاة النبي ﷺ فجعل المصيبة وكأنها أمرٌ مجسَّمٌ يراه بعينه، وربما كانت الرؤية هنا ظنية؛ لعلمه ببعض ضعاف النفوس والإيمان.

وفي ذكر اسم الشاعر ما يفهم منه مناسبة اسمه لوصف ما أحل به من مصيبة، فكان لاستدعاء اسمه دلالة على الواقع الأسود الذي يعيشه.

---

(١) هو سواد بن قارب الدّوسي الأزديُّ السدوسيٌّ، صحابي كان يتكهن في الجاهلية، ولإسلامه خبر متداول في كثير من كتب السير. معرفة الصحابة لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني،ص١٤٠٤، تحقيق: عادل العزازي، دار الوطن للنشر ــ الرياض،ط١٤١٩،١ه.

(٢) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ١٧٠.

٢٠٠٤

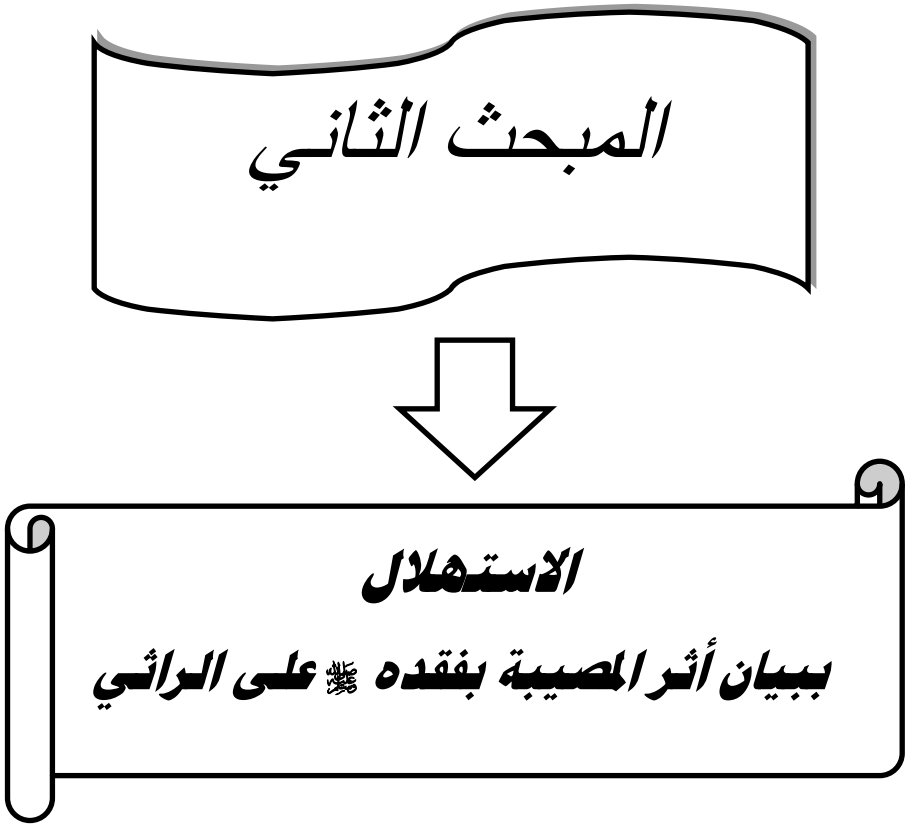
المبحث الثاني
الاستهلال
ببيان أثر المصيبة بفقده ﷺ على الرائي

ومن أشد حزنًا على فقد النبي ﷺ من الزهراء، لا تدري أتنعي الأب الرحيم الشفيق أم تنعي النبي البشير النذير، فهي لم تكتفِ بإظهار حزنها، بل أشركت معها الطبيعة فقالت[1]: (من الكامل)

اغْبَرَّ آفَاقُ السَّمَاءِ، وَكُوِّرَتْ ● شَمْسُ النَّهَارِ، وَأَظْلَمَ الْعَصْرَانِ

فَالْأَرْضُ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ حَزِينَةٌ ● تَبْكِي عَلَيْهِ كَثِيرَةُ الرَّجَفَـــانِ

ولا شك أن الزهراء ترثي في هذا المطلع النبي ﷺ الهادي أكثر من رثائها الأب الشفيق، وما روي في مناسبة هذه الأبيات؛ قيل:"بعد وفاة النبي ﷺ انصرف المسلمون إلى حالهم، ورجعت فاطمة إلى بيتها، فمكثت فيه، وبعد عدة أيام قالت: إنَّا لله وإنا إليه راجعون، انقطع عنا أخبار السماء، ثم أنشأت تقول هذه الأبيات"[2].

فالزهراء تفتقد بفقدها لأبيها صلة السماء، وما كان يغشاهم من وحيها من فضل وهداية، وجعلت آفاق السماء مغبرة، بعد أن كانت صافية مشرقة بتزول الوحي على النبي ﷺ، وكأن الضياء قد خبت، والسراج قد انطفأ، فهي صورة ممتدة للحزن الجاسم على صدرها، تشاركها فيه كل مظاهر الطبيعة المحيطة بها، والمكلوم عادة يرى الحزن في كل ما يحيط به، فما بالنا والمفقود هو خير الناس كافة! فحقٌّ للطبيعة أن تحزن عليه، ويمتد الحزن وينتشر وينتقل من نجوم السماء التي تعطلت عن إضاءتها إلى الشمس التي تعطل عملها، وأحجمت عن إرسال أشعتها حزنًا وكمدًا، وكأنها كانت مبتهجة بوجود رسول الله ﷺ، فجمعت ضوءها، ولفته من فرط حزنها؛ إيغالًا في إظهار الحزن الذي أصاب الشمس، وإضافتها للنهار، فقالت: شمس النهار، مع أن الشمس لا تكون إلا نهارًا، إلا أنها أرادت شمسًا ساطعة مضيئة، ليظهر عليها أثر التكوير الذي أصابها حزنًا وكمدًا، فلما كورت الشمس أظلم العصران،

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٣٣٦.

(٢) ينظر المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٣٦١، نقلًا عن سلوة الكئيب بوفاة الحبيب، لابن ناصر الدين محمد بن عبد الله الدمشقي، ص ١٦٤، ١٦٥، تحقيق: د/ صـــالح يوســـف معتـــوق، دار البحـــوث والدراسات الإسلامية، دبي.

المقصود بهما الظهر والعصر، وهما أوضح الأوقات وأكثرها ضياء؛ لذا خصا بالذكر دون غيرهما، والتعبير بالماضي (اغْبَرَّ، كُوِّرَتْ، أَظْلَم) يفهم منه تحقق وقوع هذه الأفعال، فلا مجال للشك فيها، وكان للعطف بين هذه الجمل الثلاث أثر بالغ في تدافع تلك النكبات المتتالية علىى البيئة المحيطة بها من كل الجوانب، وفي البيت الثاني عطفت على حزن السماء وما حوته من أجرام حزن الأرض، مصورة إياها بكائن حيّ يفيض حزنًا، فضلًا عن دلالة التعبير بالجملة الفعلية على التجدد والحدوث، وفي إطلاق لفظ (النبي ﷺ) دون أبي أو محمد ما يؤكد ما ذهبت إليه من رثائها وافتقادها للهادي المبعوث بوحي السماء من المولى عز وجل.

ثم ما لبثت أن وضحت حزن الأرض بتلك الجملة الحالية، فقالت تبكي عليه، ولم يكن بكاؤها هادئًا، بل يرجف من شدته، وكأن الأرض قد زلزلها خبر الوفاة وأفزعها، فبكت بكاء مدويًا، فاهتزت من شدته وحرقته.

وما تصوير فاطمة لحالة السماء التي اغبرت، والشمس التي كورت، والأرض الباكية المرتجفة إلا تصوير لحال نفسها التي تزلزلت وتصدعت أركانها؛ جراء هذا الحادث المدوي الذي عصف بكيانها، وطاش بهدوئها وسلامها، فأخرجت هذه المشاعر من ذاتها، وخلعتها على مظاهر الطبيعة المحيطة بها، فحري بكل من يحيط بالزهراء أن يشاركها آلامها وحزنها على فقد من لا يدانيه مفقود، عليه صلوات ربي وسلامه.

فالزهراء تريد أن تشترك جميع مظاهر الطبيعة حولها فيما يسيطر عليها من حزن وكآبة، " فجاءت بصور تتناسب مع حالتها النفسية، فلو كانت الصورة بالسواد والشحوب، وذلك مناسب للون الحياة في عينها، فكل ما حولها شاحب مسوّد، وبعد أن تغير لون السماء وصورتها المعتادة بتوقف نزول الوحي لموت النبيﷺ شاركت الأرض باضطرابها وكثرة جفائها، بما يحتم على البشر ملازمة البكاء على فقيدهم، فهم أولى ببكائه من كل مظاهر الطبيعة لشدة حاجتهم له"[1].

(١) شعر الرثاء في صدر الإسلام دراسة موضوعية فنية، مصطفى عبد الشافي الشورى، ص ٦٩، بتصرف، دار المعارف، ط١، ١٩٨٦م.

وإذا كان أثر الفقد واضحًا جليًّا على الصحابة وعلى مظاهر الطبيعة، فها هو يظهر على مراكب النبي ﷺ، تقول عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل: [1]

(من المتقارب)

أَمْسَتْ مَرَاكِبُهُ أَوْحَشَتْ • وَقَدْ كَانَ يَرْكَبُهَا زَيْنُهَا

وَأَمْسَتْ تُبَكِّي عَلَى سَيِّدٍ • تُرَدِّدُ عَبْرَتَهَا عَيْنُهَـا

بجملة خبرية، ماض فعلها، أعربت لنا عاتكة عن تلك الحالة التي عليها مراكب النبي ﷺ بعد فقده، وهي حالة من الوحشة الشديدة، ولم لا يعتريها هذا الإحساس البغيض، ولم يكن راكبها كسائر الراكبين، هو خير من امتطى ظهر راكبة، بل من تزدان به المطايا؟!، وليس من شك أن في المساء إيحاء واضحًا بالغروب الذي عاشه المسلمون.

واستهلال المرثية بالفعل (أَمْسَت) يفهم منه انغماس المراكب في الحنين والوحشة للنبي ﷺ ، والتعبير بالزمن له دلالة نفسية على حالة المتكلم، واختصاص المساء دون غيره من الأزمنة يستحضر الغروب الذي يلامس غروب النعيم والأمن والإيمان الذي كان يعيشه المسلمون في حياة النبي ﷺ .

وفي تكرار (أَمْسَت) في بيتين تاليين يفهم منه أن هذه المشاعر متوطنة متمكنة من أصحابها، لا تنفك عنها بحال من الأحوال، مما وطنّ الحزن والحسرة في قلوب السامعين.

ولم يتوقف الأمر على تشخيص تلك المراكب، وخلع صفات الوحشة والحنين عليها، بل امتدت الصورة إلى البيت التالي، وجعلها دائمة البكاء، بل الصورة أوغلت في الامتداد، وجعلت تلك المراكب تردد العبرات، وترديد العبرات أمر شائع في المآتم لاستجلاب الأحزان واستدرار الدموع.

---

(١) القرشية العدوية كان أبوها فريدًا في زمانه، إذ كان الناس يعبدون الأصنام، وهو من دونهم يعبد الله الواحد الأحد الذي قال فيه رسول الله ﷺ:" إنه سيبعث أمة وحده". المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص٣٣٨.

وفي تقديم المفعول (عَبْرَتَهَا) ما يفهم منه إشاعة جو الحـــزن والألم بتقـــديم الدموع وترديدها.

فإذا كانت عاتكة قد استهلت رثاءها للنبي ﷺ بالحديث عن حزن المراكب وحنينها ووحشتها له ﷺ، فلا شك أنها ترى أنها أولى بالحزن من هذه الكائنات غير العاقلة التي لم تعلم من فضائل النبي ﷺ وعظيم شأنه ما تعلمه هي، فهي بذلك الاستهلال تمهد لذكر حزنها وألمها على ذلك المصاب الجلل.

فلما رأت عاتكة حال دواب النبي ﷺ التي كان يركبها ﷺ وهي تبكي كما يبكي الناس ألمًا وشوقًا وحنينًا، فالحزن لم يكن خاصًّا بالناس، بل شاركتهم الدواب فيه، فأحزنتها تلك الصورة، كما أحزنتنا، وأثارت فينا شجونًا وألمًا، فتحريك الحنين والوحشة الذي رصدته صورة المراكب زادنا حنينًا كما زاد عاتكة لما رأته، فهذه الصورة الممتدة ما هي إلا بعث لدواعي الحزن والحنين لدى الشاعرة.

***

وهناك من صوّر حالته بعد فقد النبي ﷺ، و لم يكن هناك مَنْ هو أسوأ حالًا وأشد حزنًا من علي بن أبي طالب وصيه وحبيبه وزوج الزهراء، فيقول[1]: (من الكامل)

نَفْسِي عَلَى زَفَرَاتِهَا مَحْبُوسَةٌ ● يَا لَيْتَهَا خَرَجَتْ مَعَ الزَفَرَاتِ

جعل نفسه لا تفيض إلا غَمًّا وحزنًا، فهو قد حبسها على تلك الزفرات التي ملأت صدره غَمًّا وكمدًا، فصور نفسه بإنسان يحبس، كما صور الزفرات بمكان يحبس عليه، ويفهم من هذا التجسيد طغيان الحزن والألم الذي تجسد بداخله، وأصبح لا يفارقه، ولا ينفك عنه، وكأنه أصبح حبيسًا له، لا يقوى على فك قيده أبدًا.

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ١١٧.

وكان للتعبير بالاسم (مَحْبُوسَة) دلالة على الاستمرار في هذه الحالة، كذا في تقديم الجار والمجرور (عَلَى زَفَرَاتِهَا) على الخبر ما يوحي بمعنى زائد للحزن والألم الساكن في صدره، وهذا ما يفيده جمع (الزفرة)، فكل ما يملأ صدره هو زفرات، وليس زفرة واحدة تتدافع في داخله، وتجشم على صدره، ولا يجد بدًّا من ذلك الشعور الثقيل الذي لا يجد منه مخرجًا إلا تمنى خروج تلك النفس المثقلة بزفراتها، فقال: (يَالَيتَهَا) مستعينًا بأداة النداء (يَا)؛ لما لها من امتداد صوتي يمكنه من خروج الزفرات القابعة في أعماق نفسه، كما يساعده ضمير الغائبة (هاء) وما فيه من مد على تحقق هذا الغرض.

وفي تعبيره عن نفسه بالضمير (لَيْتَهَا) مع إعادة ذكر الزفرات في آخر البيت ما يبعث على الحزن ويوقظ الألم الذي يعتصره، فأعاد ما هو متمكن منه مسيطر على فكره، فحالته الوجدانية وخلجات قلبه لا تعي إلا تلك الوفرات العالقة في داخله، التي يتمنى أن يتخلص منها حتى وإن خرجت معها نفسه.

وهذا الاستهلال القوي المعبر عن خلجات النفس يليق ويتناسب مع حالة من فقد الأخ والصهر والعضد، فضلًا عن فقده للنبي ﷺ والهادي والبشير النذير.

فلما اجتمعت أواصر القرابة من كل جانب قويت العاطفة، واشتد الألم، وعبرت الكلمات بصدق عما يحس في النفس، وأصبح خروج النفس أمنية محببة إليها، والإنسان ضنين بنفسه، ولا يدفعه على بذلها إلا ما هو أحب إليه من نفسه، وذلك هو الإيمان، وهذا المعنى لا يولد إلا في نفوس تغلغل فيها حب النبي ﷺ؛ لذا نرى هذا المعنى شائعًا في مراثي الصحابة ـــــ رضوان الله عليهم ـــــ، وكما قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ، وَوَلَدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ"(١).

***

(١) صحيح البخاري، كتاب: الإيمان، بَاب: حُبّ الرَّسُول ﷺ مِنَ الإِيمَانِ، حديث رقم: ١٥، ١٢/١.

وهذا شاعر يمني يستهل مرثيته بالحديث عن مصاب قومه، فيقول[1] ذو الكَلاَع الحميري[2]: (من الرمل)

قَدْ أَتَى حِمْيَرَ أَمْرٌ شَامِلٌ ● قَاطِعٌ لِلظَّهْرِ مُزْرٍ بِالأَمَـــلْ
مَوْتُ مَنْ كَانَ بَقَاهُ رَحْمَةً ● كُلُّ شَيءٍ مَا خَلاَ هَذَا جَلَلْ

بجملة خبرية مؤكدة يستهل ذلك الشاعر اليمني حديثه عن فقد النبي ﷺ، مؤكدًا مضمون ذلك الخبر، وما حل بقبيلته من مصاب جلل، وهذا شاعر يمني له في علم اللغة باع طويل؛ لذا أحسن اختيار فعله وزمنه، فعبر بـــ(أَتَى) وما له من دلالة على الإصابة بأمر ما، فنقول:" أتى من جهة كذا؛ أصيب من جهته، وأتى الجيش: أي دَهَمَه العدو"[3]، فقد داهمهم هذا الأمر وأصابهم بغتة، وقدم المفعول (حِمْيَر)؛ لما له من دلالة على اختصاصهم بهذه الفاجعة، وكأنهم قد نالهم هذا الخطب، وقصم ظهورهم دون غيرهم، وعبر عن وفاة النبي ﷺ بـــ(أَمْرٌ شَامِل)؛ لشمول أثره على الجميع، فهو شامل في آثاره، وشامل فيمن تأثر به، والقبائل العربية تتسم بروح الجماعة، وتشيع فيهم العصبية القبلية، فهذا الشاعر لم يتحدث عما أحل به حيال هذه الكارثة، ولكنه ذكر فجيعة قومه، وكأن القبيلة المجتمعة في كل شؤونها، قد اجتمعت في إحساسها ومشاعرها، والواقع أن فقد النبي ﷺ إحساس قد أوجع المسلمين في كل بقاع الأرض على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم، فهو فقد شامل، وحزن عام، ثم لم يلبث ذلك الشاعر اليمني أن يبين لنا أثر ذلك

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ١٨٥.

(٢) ذو الكَلَاع الحميري: اسمه السميفع، ويقال: سميفع بن ناكور، وقيل: اسمه أيفع، كنيته أبو شـــرحبيل، أسلم في حياة النبي ﷺ، وقيل: له صحبة...كان ذو الكلاع سيد قومه، شهد يوم اليرمـــوك، وفـــتح دمشق، وكان على ميمنة معاوية يوم صفين. تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير والأعلام: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، ٣١٩/٢، تحقيق: الدكتور بشار عوّاد معـــروف، دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠٣م.

(٣) المعجم الوسيط.

الأمر الشامل عليهم، فقال: (قَاطِعٌ لِلظَّهْر) فاستعار اسم الفاعل لما يستشعره الحميريون من ألم وحزن لفقد النبي ﷺ .

والتعبير بلفظ (قَاطِع) أشد وأوقع في الأثر من موجع أو محي، ثم أضيف لصفة هذا الأمر الشامل، صفة أخرى (مُزْرٍ بالأَمَل)، فلما بين الأثر الحسي في قوله: (قَاطِعٌ لِلظَّهْر)، أضاف له أثرًا معنويًّا، فقال: (مُزْرٍ بالأَمَل)، فقد كان وجود النبيﷺ بينهم يشد من قوتهم الجسدية، ويعقدون عليه الآمال والأحلام، فها هي ظهورهم قد قطعت، وآمالهم قد قصرت وهانت، فقد كان معقد آمالهم، ورمز قوتهم وعزهم، ثم يأتي في البيت الثاني بتوضيح ذلك الأمر الشامل الذي أصابهم، وكأنه لم يستطع أن يبوح به في أول بيت فذكر تمهيدًا له وتوطئة، ثم استجمع قوته في بيته الثاني، فقال: (مَوْتُ مَنْ كَانَ بَقَاهُ رَحْمَة)، وعرف النبي ﷺ باسم الموصول؛ لأن جملة الموصول تقرر وتؤكد غرض الشاعر، فحزنه على النبي ﷺ الذي قطع ظهور قومه وأزرى بآمالهم، كونه رحمة لهم يؤكد هذا الغرض أبلغ تأكيد، فضلًا عما في جملة الصلة من تعظيم للنبي ﷺ، وأضاف تنكير (رَحْمة) تعظيمًا آخر إلى ما أفادته جملة الصلة، ولما عبر الشاعر اليمني عن النبي ﷺ بجملة الصلة (مَنْ كَانَ بَقَاهُ رَحْمَة)، فبقاءُ النبي ﷺ رحمةٌ وهدايةٌ وأمنٌ وبشارةٌ وإنذارٌ، فلم اختار الرحمة دون غيرها؟، وهذا النعت جامع لبشريته ولنبوته ﷺ، وشعراء اليمن كانوا يعانون من بُعدهم عن النبي ﷺ، ويحزنهم عدم ارتوائهم من معينه العذب، كما ارتوى إخوانهم، إلا أن رحمته كانت تغشاهم من خلال القرآن الكريم، وتلك التعاليم الدينية التي أرسل بها رسوله "معاذ بن جبل" عاملًا على اليمن، وهذا ما أشار إليه الشاعر فيما تلى هذا البيت.

ثم ينتهي شاعرنا إلى حقيقة صاغها في إطار عام كما اعتاد منذ استهل مرثيته، فقال:(كُلُّ شَيءٍ مَا خَلاَ هَذَا جَلَل)، وخلا إذا سبقت بما المصدرية كما هنا تعرب فعلًا وهي أداة استثناء، والمستثنى واجب النصب على رأي سيبويه[1]، والجلل

(١) نَحْو الخليل من خلال مُعْجَمه، الأستاذ الدكتور/ هادي نهر، ص٢٨، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠١٨م.

من الأضداد يطلق على القليل اليسير كما هو مراد هنا، ويطلق على العظيم، وإشارته إلى موت النبي ﷺ باسم الإشارة (هَذا) فيه تعظيم لشان هذا الحدث، فكل ما يحيط بهم من نكبات ومصائب يهون أمرها عليهم إذا قيس بمصيبة فقده ﷺ .

ومع شاعر آخر من شعراء اليمن يصف لنا أثر المصيبة عليه فيقول[1] مُرِّان بن ذي عمير[2]: (من الخفيف)

إِنّ حُزْنِي عَلَى الرَّسُول طَوِيلُ ● ذَاكَ مِنّي عَلَى الرَّسُولِ قَلِيلُ

فيستهل رثاءه بجملة خبرية مؤكدة لتبين لنا مدى حزنه على فقد النبي ﷺ، وأضاف الحزن إلى نفسه؛ وكأنه مختص به دون سواه، وجعل حزنه على الرسول ﷺ بوصفه دون اسمه؛ لكونه يفتقد هذه الصفة التي وصل إليه نعيها، وهو فى بلاده البعيدة لم يرَ النبي ﷺ ولم يحظَ بالعيش بجانبه، فكل راثٍ يقدم ما يفتقده بفقد النبيﷺ، فشعراء اليمن يفتقدون وبشدة الرسول ﷺ ذلك المرسل من المولى ﷻ، الذي يأتيهم بتعاليم السماء، وينظم لهم أمور دينهم ودنياهم، ووصف الحزن بالطول وكأنه أمر محسوس يشغل حيزًا من الفراغ، ويوصف هذا الحيز بالطول، وفى فصله بين الصفة والموصوف بالجار والمجرور (عَلَى الرَّسول) يفهم منه أن هذا الحزن خاص بكونه على الرسول ﷺ، فهو جدير بما يأتي بعده من صفة، ثم أشار إلى ما سبق من وصف لدى حزنه بقوله: (ذَاك) قاصدًا به تقليل هذا الحزن، وإن وصفه بالطول، وإن جعل هذا الحزن خاصًّا به دون سواه (مِني)، فجعل هذا الحزن خاصًّا به أولًا بإضافته إلى نفسه، ثم جعل هذا الحزن قليلًا منه.

---

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ١٨٦.

(٢) هو: مُرَّان ــ بضم أوله والتشديد، وآخره نون ــ ابن ذي عمير بن أبي مران الهمدانيّ، نَسَبَهُ صاحب (الإكليل) ، ذكره وثيمة في (الردّة)، وأنه كان من ملوك همدان، وأسلم فيمن أسلم منهم. الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، ٢٢٢/٦.

وجاء نظم الشطر الأول متماثلًا مع نظم الشطر الثاني؛ حيث بدأ في كلٍّ منهما بذكر ما انتابه من حزن، وإن كان في الشطر الأول عرفه بالاسم الظاهر المضاف إلى نفسه (حُزْنِي)، وفي الشطر الثاني عرفه باسم الإشارة (ذَاكَ)، وإن أضافه إلى نفسه، وقدم الجار والمجرور في الشطرين (عَلَى الرَّسول)، وختم الشطر الأول بقوله: (طَوِيل) والمصراع الثاني بقوله: (قَلِيل)، وإن لم يقابل بين الوصفين مقابلة ظاهرة بين كثير وقليل، وكان تعبيره بـــ(طَوِيل) بما يفيد امتداد الحزن ذلك الامتداد الذي يدعمه حروف المد المتتالية على طول ألفاظ البيت، ونغمة حروف المد تناسب تلك النغمة الحزينة التي تسيطر على الشاعر، ولا يستطيع الفكاك منه، فضلًا عن النغم الموسيقي الذي أضافه التصريع الذي جاء عليه البيت بما يتناسب مع ذلك النغم الحزين المسيطر على جو المطلع.

***

ونأتي إلى شاعر آخر من شعراء الصحابة من أهل اليمن ﷺ، وهو ابن ذي أصبح،[1] مستهلًا رثاءه بقوله[2]: (من مجزوء الخفيف)

صَـــدِّعَ القَلْـــبَ أَهْـــوَدُ[3] ● إِذْ نَعَـــى لِـــي مُحَمَّـــدَا

فشاعرنا لا يملك إزاء هذا الخبر الذي لا يقوى على احتماله إلا أن يتجه إلى من ألقي إليه به، مبكتًا إياه، فهو يريد أن يخرج من داخله ذلك الحزن الدفين، والكمد العميق، فلم يجد أمامه إلا من نعى إليه النبي ﷺ ، فهو لون من ألوان التنفيس عن النفس وإخراج ما بها من ضيق وضجر.

---

(١) أبرهة بن شرحبيل بن أبرهة بن الصباح ابن ذي أصبح الحميري، قيل: إنه وفد على النبي ﷺ ففرش له رداء، وكان يُعد من الحكماء. الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ١٧٤/١، وما بعدها.

(٢) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ١٧٢.

(٣) أهود بْن عياض الأزدي، هو الذي جاء بنعي رَسُول اللَّهِ ﷺ إِلَى حمير، وله عند ذلك كلام يدل عَلَـــى أَنَّهُ كان مسلمًا. أسد الغابة: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بـــن عبـــد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير، ١٦٣/١، دار الفكر ـــــ بـــيروت، ١٤٠٩هـــــ ـــ ١٩٨٩م.

وقد استعار الشاعر الصدع لما حل بقلبه من أحزان وآلام، وكأن أثر هذا الحزن العميق لا يزول، كما أن الشق العميق لا يزول أثره، وجعل ناقل الخبر هو فاعل الصدع، وليس الخبر الذي جاء به.

ثم جاء بالسبب والعلة لما أصاب قلبه من الصدع، وجاء بـــ (إِذْ) لدلالتها على التعليل، وترك عطف السبب على مسببه لشبه كمال الاتصال، وتقديمه للجار والمجرور (لِي) وكأنه اختص دون غيره بسماع هذا النعي، فمصيبة فقده ﷺ وإن كانت عامة على المسلمين جميعًا، إلا أن كل فرد من أفراد الأمة يشعر وكأنها مصيبته هو، وكأن مشاعر الحزن التي خيمت عليه أنسته من حوله، وكيف لا والمفقود هو أفضل من في الوجود هو خير من طلعت عليه الشمس من لدن آدم إلى قيام الساعة، فمن خلال ذلك الاستهلال القوي وما له من بنية صوتية مدوية (صَدَّعَ القَلْب) أبان لنا الصحابي الجليل عن أثر فقد النبي ﷺ عليه، فهو أثر مزلزل صادم، وفي الاستهلال بلفظ الصدع ما يفي بهذا الغرض، ويصور مشهدًا لذلك القلب المصدوع الخائر القوي، وصفات الحروف ومخارجها في كلمة (صَدَّعَ) وما فيها من قوة وجهر يناسب قوة الأثر وشدته.

***

وذلك أبو سفيان بن الحارث ابن عم رسول الله ﷺ يصور لنا أثر مصـــيبة الفقد عليه فيقول[1]: (من الوافر)

أَرِقْتُ فَبَاتَ لَيْلِي لاَ يَزُوْلُ ● وَلَيْلُ أَخِي الْمُصِيْبَةِ فِيْهِ طُوْلُ

بتلك الجملة الخبرية استهل ابن عم رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاعة تلك المرثية، ليخبرنا بواقع يقاسيه، وألم يحيط به ويعيشه، ومن خلال زمن الفعل يتجلى لنا تحقق هذا الأرق وثبوت وقوعه، ثم أردف هذه الجملة وعقبها ببيان حقيقة هذا

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٢٤١.

الأرق، فقال: (فَبَاتَ لَيْلِي لاَ يَزُوْل) والتعبير بالفعل (بَاتَ)، له دلالة في استدامة الحزن وديمومة الأرق، وسيطرته على نفسه، فهو منغمس فيه، وإسناده المبيت إلى الليل وما فيه من المجاز العقلي، ما يوحي لنا بأن زمن الشاعر وامتداده لا سلطان له عليه، وكأنه فقد القدرة على النوم، وأصبح الزمن هو المتحكم فيه، وفي إضافة الليل إلى نفسه (لَيْلِي) لاختصاصه بذلك دون سواه، وكأن هذا الليل المؤرق الذي لا نهاية له، ليله هو الذي اختصه بأرقه وأبرز له كل ما يؤرق مضجعه من هموم وأوجاع، ثم جاءت جملة الصفة المنفية (لاَ يَزُوْل) مؤكدة ما أكده زمن الفعل (بَاتَ) فضلًا عن إفادتها معنى الملاصقة والديمومة، فالليل بالنسبة إلى شاعرنا يمثل حدثًا وشعورًا لا زمنًا، ربما طلع النهار، ولكن إحساسه بظلمة العالم من حوله وما يشعر به من حزن وألم لا ينفك عنه، ولا يترع شعور الليل الحزين من داخله، وهذا المعنى امتد به الشاعر إلى المصراع الثاني من البيت، ومن خلال رد العجز (لَيْل) على الصدر (لَيْلِي) امتدت نغمة الحزن التي زفرتها أنفاس هذا الشاعر المكلوم، وكنى عن نفسه بـــ (أَخِي المُصِيْبَة) دلالة على ملازمة المصيبة له، ومصاحبتها إياه، مصاحبة الأخ لأخيه، وكأنه يريد أن يضفي على حالته البائسة صفة العموم، أو القياس، على كل من أصيب بمصيبة مثله، فليله طويل مثل ليله، ولكن هيهات أن تكون مصيبة أخت لمصيبة فقد النبي ﷺ، إنها محاولة لتهدئة النفس المفجوعة، لعلها تتصبر بها وتهدأ، وفي تعبير شعراء المراثي بالليل ما يوحى بظلمة حياتهم بعد غياب نور النبوة عنهم.

وإذا كان أثر تلك المصيبة على شعراء المراثي يتراوح في استهلالهم ما بين أرق بالعيون، وصدع بالقلوب، وصَرْع بالنفوس، فماذا عن الشواعر من الصحابيات اللائي قد يبصرن ما لم يبصره الرجال، وحزن النساء أشد لوعة من الرجال؛ لما اختص به الله النساء من طغيان في العاطفة، ورقة في المشاعر، كما يقول

ابن رشيق عن النساء: " أشجى قلوبًا عند المصيبة، وأشدهم جزعًا على هالك؛ لما ركّب الله في طبعهن من الخوف وضعف العزيمة"[1].

وبالرغم من أن المرأة العربية أكثر النساء حملًا للنوازل، وأشدهن صبرًا في ملمات الأمور، إلا إذا انتزع منها الموت عزيزًا غاليًا، فهي تتوه في شعاب من الهموم، مطلقة لحزنها العنان، مضاعفة بذلك الآلام؛ لذا نجد عُظْم شواعر العربيات أكثر أشعارهن في الرثاء، بما يعبر عن مظاهر الحزن، وهذا في فقدهن لقريب أو حبيب، أما عن فقد من فاق فقده كل فقد، فكان جللًا أصاب المسلمين، فأفل النور الذي أضاء البسيطة بما فيها، مما أحال بلاد المسلمين إلى بركان يقذف بحمم الصراخ والبكاء الذي تقطعت له الأكباد؛ مما أطلق الألسن لتعبر مع العيون عن تلك المشاعر الكامنة في الصدور.

***

ورثاء بيت النبوة نلمح فيه ذائقة الحزن أشد مرارة، ونبرة البكاء أقوى لذعة، وحزن القلب أعمق من غيرهم؛ لقوة مصابهم، وشدة قربهم، والتصاقهم بالنبي ﷺ، فقد فقدوا فيه العائل، والسند، والرفيق، والعشير، فضلًا عن فقدهم للرسول ﷺ والهادي وحامل الوحي عن رب العزة، فها هي فاطمة الزهراء، أم أبيها وحبيبته، تقول[2]: (من الكامل)

مَا فَاضَ دَمْعِي عِنْدَ نَائِبَةٍ ● إِلاّ جَعَلْتُكَ لِلْبُكَا سَبَبَا

استهلت الزهراء مرثيتها للنبي ﷺ بأسلوب قصر، أكدت فيه على حزنها الدائم على وفاة النبي ﷺ وأن كل مصائب الدنيا هانت في عينها بعد مصيبة فقده، فقد كانت تستعين بالنوائب والنوازل لتبكي على فقده، فلم توجد نائبة مهما

(١) العمدة لابن رشيق القيرواني، ١٥٣/٢.

(٢) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٣٢٥.

عظمت إلا وكان داعي بكائها عليها هو ذلك السبب الأعظم والأوحد، وهو فقد النبي ﷺ، وكان لبراعة تلك الألفاظ التي استهل بها هذا البيت أعظم دلالة على معناه، فعبرت بالفعل (فَاضَ) دون نزل أو غيره؛ لدلالته على الانهمار والزيادة، وإضافة الدمع إلى نفسها (دَمْعِي)، فذلك الدمع الغزير الفائض خاص بها، و لم لا؟ وهل يدانيها في حزنها أحد؟، وفي تنكير (نَائِبَة) ما يوحي بعظم هذه المصيبة؛ لأن النائبة هي المصيبة الشديدة، وفي استخدامها لفعل الجعل (جَعلَتُك) ما يوحي بصنعة خاصة لها، فهي تدير الأحزان والنوائب في داخلها، فلا تجدها مدعاة للحزن فتستدعى الحزن الكامن بداخلها على فقده ﷺ، فيفيض دمعها وينسكب مدرارًا، وإن ظهر أنه بكاء على النائبة إلا أن السبب الحقيقي له هو فقدها لأبيها وقرة عينها ـــــ صلوات ربي وسلامه عليه ـــــ، وفي خطابها للنبي ﷺ (جَعلَتُك) وكأنه حاضر أمامها، فما يستدر الدمع ويهيج الأحزان ويستدعي الوحشة والحنين، وتقديم الجار والمجرور (لِلْبُكا) على المفعول ما يجمع دائرة الأحزان ويعجل باستدرار الدموع، فتقديم لفظ البكاء أهم وأكثر عناية بالغرض الذي قصدته.

***

وفي موضع آخر نرى أثر المصيبة على السيدة فاطمة الزهراء، قد استهل بصورة مختلفة، فتقول[1]: (من الكامل)

أَمْسَى بِخَدِّي لِلدُّمُوعِ رُسُومُ • أَسَفًا عَلَيْكَ، وَفِي الفُؤَادِ كُلُومُ

استهلت الزهراء مرثيتها برسم صورة معبرة عن حالتها، فكنَّت عن شدة تحدر الدمع على خديها بوجود علامات غائرة على الخد، وكأن خدها قد أصبح مقرًّا لدمعها، وفي التعبير بلفظ (أَمْسَى) بدلالته النفسية على الغياب والأفول، فضلًا

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٣٣٤.

عن دلالة الزمن الماضي على تحقق هذه الكارثة ، وفي تقديم الجار والمجرور (للدموع) خبر أمسى ، على اسمها (رُسُوم) ما يفهم منه الاهتمام بوصف حال خدها وما حل به، وكما سبق في مرثيات الزهراء، نتيجة في خطابها إلى النبي ﷺ وكأنها تبثه أحزانها، فتوجه الخطاب إلى الفقيد يزيد من اللوعة والحزن ويبعث كوامن الدمع والنحيب، فجاء المصراع الثاني من البيت علة وسببًا لما جاء في المصراع الأول، وهذا ما اعتدناه في كثير مما استهل به الصحابة مراثيهم،فقالت: (أَسَفًا عَلَيْك)، وهذا تعبير يوحي بشدة التوجع والتحسر؛ كما أن تكرار حرف السين (أَمْسَى، رُسُوم،أسَفا) وما فيه من همس وصفير خافت يرفع الصوت بالشكوى والأنين، ولا يلبث أن يبوح الهمس بالحسرة والألم أكثر مما يبوح بها الجهر في موطن الحزن والألم، والتعبير بالمصدر (أسَفا) دلالة على ثبوت تلك الصفة وعدم تخلصها منها، وجريًا على بناء العديد من المرثيات من تقديم الأثر المادي أولًا، ثم إضافة الأثر المعنوي، فبدأت الزهراء بأثر الدمع على الخد، ثم عطفت عليه أثره على الفؤاد، فقالت: (وَفِي الفُؤَادِ كُلُوم)، والتعبير بـ(الفُؤَاد) دون القلب أليق بالمقام، "فالتفؤد يعني حرقة القلب وألمه، فهي من صفات القلب"[1]، وفي تنكير لفظي (رُسُوم، كُلُوم)، فضلًا عن جمعهما، ما يؤكد معنى الحزن واللوعة والأسى، فرسوم وجهها وكلوم فؤادها عظيمة متعددة، فقد رسمت لنا الزهراء حالتها في الاستهلال القوي الذي صور لنا الموقف الحزين بأقوى الألفاظ، وأليق العبارات.

***

(١) لسان العرب لابن منظور، مادة: (فأد).

وتستمر نساء بيت النبوة في الحديث عن أثر المصيبة عليهن، فهذه صفية عمة النبي ﷺ تصور لنا حالتها، فتقول[1]: (من الخفيف)

لَهْفَ نَفْسِي، وَبِتٌّ كَالمَسْلُوبِ ● أَرْقُبُ اللَّيْلَ، فِعْلَةَ المَحْرُوبِ[2]

بعبارة يملؤها التوجع والحسرة استهلت السيدة صفية مرثيتها للنبي ﷺ، وهي صيغة دأب عليها العرب في مقام الحزن والحسرة على فائت، وهي صفة مشبهة بدلالته على الثبوت المناسب لثبوت حزن الشاعرة وكمدها، كما أضافت اللهف والكرب إلى نفسها و لم تقل لهفت مثلًا، وكأن اللهف أمر معنوي يصيب النفس لاختصاصها بتلك المشاعر الحانية الحزينة، ولما كان لهف النفس وشدة الحزن تورث الإنسان ذهولًا عن كل ما يحيط به، فهو لا يعي إلا حزنه وألمه؛ لذا عطفت على لهف نفسها أمرًا آخرًا هو نتيجة لما قبله، فقالت: (وَبِتٌّ كَالمَسْلُوب)، وفعل (وَبِت) يفهم منه استقرار تلك الصفة وتمكنها منها، وفي تشبيه حالتها بحالة ذلك المسلوب الذي فقد القدرة على الإدراك ما يوحي بتمكن الحزن منها وسيطرته عليها، فلا تملك معه من السيطرة على مشاعرها شيء، وكأن قدرتها على التخلص من الحزن قد سلبت، وبهذا التشبيه تحاول الشاعرة أن تنفي عن نفسها أي لوم، فهي لا تملك الإرادة التي تمكنها من التماسك وترك الحزن والبكاء.

ثم فسرت في المصراع الثاني من البيت معنى ذلك المسلوب، ووضحته بقولها: (أَرْقُبُ اللَّيْل) فاستعارت الفعل (أَرْقُب) لكثرة سهادها وجفوة النوم لها، وكأنها رقيب لا تنام عينه، وتشبيه حالتها المراقبة لليل بحالة من دارت عليه رحى الحرب ، فلا تغفل له عين ولا ينام له جفن، أو بحال من سلبت ولدها فتقضي ليلها والهة لا تعرف طريقًا للنوم أو الراحة.

---

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٢٨٧.

(٢) المحروبة: التي سلبت ولدها، المعجم الوسيط، مادة: (حرب).

كما استعانت الشاعرة في استهلالها بالتصريع كوسيلة لإظهار مشـــاعرها الحزينة والتأثير في نفوس المتلقين، فجاءت قافية العروض (المَسْلُوب) فعول وقافيـــة الضرب (المَحْرُوب) فعول أيضًا.

***

ومع جولة أخرى من جولات الحزن والأسى تصور لنـــا الســـيدة صـــفية حالتها وما أصابها في ليلها، فتقول[1]: (من الخفيف)

طَالَ لَيْلِي أَسْعِدْنَنِي أَخَوَاتِي ● لَيْسَ مَيْتِي كَسَائِرِ الأَمْوَاتِ

استهلت مرثيتها بمطلع موجع ليله طويل لا نهاية لطوله، وطول الليل يكنى عن كثرة الهموم والأحزان، فلن تستطيع أن تتغلب على هذا الليل الطويل المثقل بالآلام والهموم إلا بمواصلة الأحزان، فذلك الحزن الذي لا مخرج عنه إلا بحزن، ولفظ أخواتي؛ ربما قصدت به أخواتها في النسب، فتكون المشاركة بينهن في المصيبة ذاتها، وإذا قصدت من تلك الأخوة، أخوة الأحزان فلكل منهن مصاب يستدعي البكاء والنحيب، وعادة ما تجتمع النائحات كل منهن تبكي على مصابها، وهذا ما يقويه المصراع الثاني من البيت لما نفت أن يكون ما بها مشابهًا لما أصابهن، فقالت: (لَيْسَ مَيْتِي كَسَائِرِ الأَمْوَات) ليس مثلهم حيًّا ولا ميتًا، فأسباب حزنها مختلفة، فبذلك التشبيه المنفي، تضرب عن الأمر السابق، وكأنها استدركت على هذا الأمر (أَسْعِدْنَنِي) بأن المشاركة لن تكون عادلة؛ لانتفاء المساواة بين من تبكيه هي ومن يبكونه، وهذا المطلع المبكي الموجع الذي نرى فيه الدمع منحدرًا، والقلوب مقرحة، والعيون يجافيها النوم فلا ترى لليل نهاية، أعرب لنا وبصدق عن شدة مصاب السيدة صفية بفقد النبي ﷺ .

***

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٢٨٩.

وإذا كانت السيدة صفية قد استهلت مرثيتها السابقة بـــ(طَالَ لَيْلِـــي)، فهنا نراها قد عبرت عن مصابها بقولها[1]: (من الخفيف)

آبَ لَيْلِي عَلَيَّ بِالتَّسْهَادِ ● وَجَفَا الجَنْبُ غَيْرَ وَطْءِ الوِسَادِ

وفي هذا المطلع جعلت الشاعرة الليل فاعلًا لذلك السهاد على طريق المجـــاز العقلي، فهو من آب به، والليل زمن اختصته الشاعرة بظهور حزنها وسهادها، كما اختصه كثير من الشعراء بذلك. إن كثرة حديث شعراء المراثي عن الليل تـــتلاءم مع حالتهم النفسية، فهو في الإطار الزمني متعدد السمات، قليل الرقاد، مخالف لليل الحزين، وطول الليل وقصره يقدم لنا وصفًا ضمنيًّا لحالة الشاعرة النفسية؛ فـــالحزين المثقل بالهموم والأوجاع يظن الليل طويلًا لا نهاية له، وفي الفقرة الأخـــيرة إطنـــاب بتكرار الجمل، أكَّد تكرار المآسي والأحزان عليها.

والخالي من الهموم يظنه لمحة قصيرة، فالليل موطن الهموم والأحزان، يتفـــرد فيه الإنسان بأحزانه، وتعلو فيه نار الشوق والحنين، والشكوى والأنين من طـــول الليل، تقليد دأب عليه الشعراء العرب على اختلاف العصور، فهو زمن يشتد فيـــه الألم والفزع، ويكثر فيه الوجع والحنين إلى من فقدوا، وفيه يهيج الألم ويعلو الهـــم الذي كان ساكنًا، وتبرز المعاناة والأوجاع، وهو مظهـــر مـــن مظـــاهر الوفـــاء والإخلاص للمفقود، فالليل زمن يخلو فيه الشاعر إلى نفسه فليس لـــه حاجـــة إلى التباهي بمشاعره فلن يراه فيه أحد، فهو زمن المشاعر الخالصة والأحاسيس الصادقة.

والتعبير بالفعل (آبَ) صور لنا دخول الليل، وتركز آلامها وأحزانها فيه بمن ذهب في طلب حاجة ثم رجع بها، وفي اختيار حرف الجر (عليّ) ما يوحي باستعلاء التسهاد وكأنه جاثم على صدرها لا تقوى على فكاكه، فضلًا عن زيارة حرف التاء في (التَّسْهَاد) فهي من الجذر اللغوي (سهد) سهادًا، فكان في زيادة المبنى ما يـــدل

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٢٩٠.

على زيادة المعنى الحامل له من الأرق والثقل والتبرم، ثم عطف فعلًا آخر أكد ما أبان عنه الشطر الأول من معانٍ، فقالت: (وَجَفَا الجَنْب) وكأن الجنب هذا له من الإدراك ما يمكنه من الجفوة والقرب، كما استعارت الفعل (جَفَا) لعدم قدرتها على النوم.

وفي الشطر كناية عن عدم القدرة على النوم، أبانت عن شدة حزنها وتقلبها على جمرات من الحزن والألم، وسيطرة الحزن والألم على الشاعرة أفقدها القدرة على بناء المطلع على نسق واحد، فأضافت الليل إلى نفسها، ولم تفعل ذلك في المصراع الثاني فقالت: (جَفَا الجَنْب)، ولم تقل: (جَفَا جَنبي)، وأحسب أن المعنى لم يأتِ معبرًا عن مرادها، فهي تقصد أن جنبها جافى وطء الوساد، وفي استعارة الجفوة للجنب ما يُوحي بشدة التباعد بين جنبها والوساد، ويمكننا تخيُّل الجنب إنسانًا تملكه الشعور بالجفوة والقطيعة للوساد، وجاءت أداة الاستثناء (غَير) لتباين هذا المعنى المراد، ولعل الارتباك من الحادث، وسيطرة الحزن والألم وغلبة البكاء تسبب في عدم سبك بناء البيت.

***

وفي مرثية أخرى تعبير عن حالتها بصورة مختلفة، فتقول[1]: (من الوافر)

أَرِقْتُ، فَبِتُّ لَيْلِي كَالسَّلِيبِ ● لَوَجْدٍ فِي الجوَانِحِ ذِي دَبِيبِ

فاستهلت مرثيتها بجملة خبرية حملت زمنًا ماضيًا محققًا لما أصابها من أرق وسهاد، كما كان لاختيارها الفعل (بِتُّ) دلالة على استغراقها زمنًا ممتدًا في هذه الحالة، وتمكن تلك الصفة منها، وزاد المعنى تأكيدًا بذكر الظرف (لَيْلِي) وإضافته إلى نفسها مع إمكان الاستغناء عنه، إلا أن ذكر الليل من أدوات الحزن ومنابع الآلام والهموم، وإضافة الفعل بت إلى زمنه من قبيل المجاز العقلي جعل الشاعرة تبدو وكأن ليلها شاركها تلك المشاعر والأحاسيس، ومن فرط إحساسها انتقل الأمر إلى الليل.

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٢٨٨.

ولّما صورت حالها في البيت السابق بالمسلوب، جاءت في هذا البيت بصورة السليب، وصيغة فعيل أوقع في تصوير وقع الحدث عليها؛ لدلالتها على الثبوت والمبالغة في الحدث أكثر من صيغة مفعول، فكأن النوم قد سلب منها وحرمت القدرة عليه، ثم بنت مطلعها بما اعتاده شعراء المراثي من ذكر سبب ما سبق ذكره في أول المطلع، فقالت: (لَوَجْدٍ فِي الجوَانِح)، فشدة الحزن والألم الذي استقر في ضلوعها هو الذي تسبب في تشبيهها بالسليب، وجعلت هذا الوجد كائنًا مستقرًا في ضلوعها، ووصفت هذا الوجد بكونه ذي دبيب، فأظهرت تلك الصفة إلى أي مدى تحترق ضلوعها من شدة هذا الوجد، وكأن دبيبًا يسري بين ضلوعها، وهذا المعنى نجده عند بعض شعراء المراثي.

فكأن ألم الفراق ولوعته يسري في الضلوع، وكأن الوجد يسري فيها شيئًا فشيئًا، فصورت الإحساس المؤلم الكامن في صدرها بحركة النمل تدب في داخلها، وإسناد الدبيب إلى الوجد مجاز عقلي، ويجوز لنا تخيُّل ذلك الوجد بكائن حي يدب في جوانحها، ويُؤرق مضجعها.

***

ومن الصحابيات من أثر فيهن فقد النبي ﷺ بصورة مدوية مثل: هند بنت أثاثة، فقالت في مطلع مرثيتها[1]: (من الوافر)

أَشَابَ ذُؤَابَتِي[2] وَأَذَلّ رُكنِي ● بُكَاؤُكِ، فَاطِمَ،المَيْتَ الفَقِيدَا

على عكس ما استهل به الصحابة مرثيتهم، بدأت الشاعرة بذكر الأثر الحسي (أَشَابَ ذُؤَابَتِي) قبل المعنوي (وَأَذَلّ رُكنِي) وأضافت لنفسها مفعول (أَشَابَ، أَذَلّ)، وإسناد هذين الفعلين إلى البكاء من إسناد الفعل إلى سببه، وكأن البكاء هو الفاعل الحقيقي لهما.

---

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٣٢٩.

(٢) الذوائب: الشعر المضفر من الرأس ، لسان العرب، مادة: (ذأب).

فالحزن المفرط والبكاء المنهمر تسبب في شيبها ؛ بل الأكثر من ذلك أذل ركنها الذي كانت تأوي إليه وتتقوى به فشعرها هو رمز قوتها الذاتية ومظهر من مظاهر شبابها وجمالها، فقدته بفقد النبي ﷺ ، كما فقدت رمز قوتها الخارجي، واستنادها إلى ذلك الركن الشديد بفقدها للنبي ﷺ .

وجعلت بكاء فاطمة سببًا لما أصابها فآثرت التعبير بالمجاز، فعبرت بالمسبب وأرادت السبب؛ لما في ذكر البكاء من تهيج لبكائها واستدرار لأحزانها، وذكر فاطمة يذهب بنا إلى مشهد الحزن الشديد، ويصور أمام السامعين المشهد الأليم والدمع السخين الذي تجرعته السيدة فاطمة في ذلك اليوم، وكنَّت عن النبي ﷺ بقولها: (المَيْتَ الفَقِيدَا)، وفي تخصيص النبي ﷺ بهاتين الصفتين ما يفهم منه اختصاصه ﷺ بها قصرًا ادعائيًّا ، وكأنه هو الحقيق دون سواه بأن يتصف بهاتين الصفتين، فلا فقيد بعد فقده، ولا ميت يستحق أن يستدعي بكاءً مثله ﷺ .

وفي تعريف الصفتين دلالة على التعظيم، لأعظم ميت وأعظم فقيد، وبهذا الاستهلال المثير للدمع الموجع للقلب أبانت تلك الصحابية عن مصابها الأليم، ومردود ذلك الفقد عليها، وأثره الجلي الذي لا يخفى.

***

وإذا كانت أحوال المسلمين حيال هذا الخبر المفجع تتراوح ما بين حزن عميق، وبكاء سخين ، وحسرة، وألم لا حدود لهما، نجد في المقابل تلك الطائفة التي كانت ترى في وجود النبي ﷺ تكبيلًا لنفسها الفاجرة، وتقييدًا لجموحها، وخروجها عن الأخلاق والتعاليم الدينية، ممن اعتدن على الفجور والعصيان، وكانت تعاليمه وشرائع دينه ﷺ تمثل لهن حملًا ثقيلًا طالما تمنَّيْنَ أن يتخفَّفْنَ منه، وهذا المعنى ما صوره لنا امرؤ القيس بن عابس[1] قائلًا[2]: (من الكامل)

---

(١) امرؤ القيس بْن عابس بْن المنذر بْن امرئ القيس بْن السمط بْن عمرو الكندي، وفد إِلَى النَّبِيّ ﷺ فأسلم وثبت عَلَى إسلامه، ولم يكن فيمن ارتد من كندة، وكان شاعرًا نزل الكوفة. أسد الغابة، ١٣٧/١.

(٢) أسد الغابة، ٣٦٥/١، والإصابة في تمييز الصحابة، ١٦٢/١، والجزء المتمم لطبقات ابن سعد (الطبقة الرابعة من الصحابة ممن أسلم عند فتح مكة وما بعد ذلك): أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع المعروف بابن سعد، ص ٨٥٠، تحقيق ودراسة: الدكتور/ عبد العزيز عبد الله السلومي، مكتبة الصديق، الطائف ــ المملكة العربية السعودية، ١٤١٦ هـ.

شِمتَ البَغَايَا يَوْمَ أَعْلَنَ جَهْبَلٌ[1] ● بِنَعِيّ أَحْمَدٍ النَّبِيِّ الْمُهْتَدِي

فهذا الشاعر المثقل بأحزان فقده للنبي ﷺ لم يغفل عن قضية اجتماعية فطرية، وهي فرح البغايا بموت النبي ﷺ، هذا يفهم منه شيوع البغاء بين طائفة من النساء، لخروجهن عن القيد الذي كان يعوقهن عن انطلاق نزعاتهن المنحرفة؛ وهذا المعنى عبر عنه شاعرنا مستخدمًا الفعل الماضي شمت بدلالته على تحقق وقوع الشماتة منهن، ويجعل هذا الخبر داعيًا لما جاء بعده من أبيات؛ حيث طلب من أبي بكر ـــ خليفة رسول الله ﷺ ـــ ملاحقة هؤلاء البغايا، لئلا يعثن في الأرض الفساد، وفي هذا مواصلة لنهج النبي ﷺ في نشر الفضيلة، واقتلاع جذور الفساد، واستئصال شأفتهن .

وقد بعث هذا التصرف المخزي للبغايا غيرة شاعرنا، فكتب إلى أبي بكر يستحثه على قتالهن، ويرثي النبي ﷺ .

وهناك علاقة وطيدة بين ما فعلته البغايا وبين نعيه للنبي ﷺ فما شاهده من شماتتهن أثار حفيظته، وهيج حزنه على فقد النبي ﷺ الذي كان درعًا واقيًا للأمة من ظهور هؤلاء السافرات الفاجرات، وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر.

والتعريف بالاسم والصفة (أَحْمَد النَّبِيّ الْمُهْتَدِي) فيه من الفخامة والعظمة ما فيه، فبدأ بذكر اسمه، ثم ثنَّى بصفته زيادة في التفخيم والتعظيم؛ مما يستدعي استحقاق الحزن، والحسرة على فقده.

(١) جهبل بْن سيف: من بني الجلاح، وهو الذي ذهب ينعى النَّبِيّ ﷺ إلى حضرموت... وجهبل وأهل بيته من كلب، يسكنون حضر موت. المرجع السابق، ٣٦٥/١.

المبحث الثالث

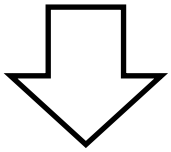

الاستهلال بالنداء

"النداء من الأساليب الإنشائية الطلبية، وغايته إصغاء المنادى إلى أمـــر ذي بال، وغالبًا ما يليه أمر أو نهي أو استفهام أو إخبار"[1].

وقد كثر استهلال المراثي النبوية بأسلوب النداء؛ ولعل ذلك يرجـــع إلى أن (النداء) مرادف للفقد، وشعراء المراثي فقدوا أعز من يملكون، فجاء النداء وما فيـــه من امتداد صوتي يتلاءم مع زفرات النفس المكلومة، ويتماشى مع النـــواح والأنـــين القابع في صدورهم؛ ليكون قناة للتواصل مع الفقيد الأعز.

وكانت (يا) هي أكثر أدوات النداء ورودًا في المراثي؛ لما لها مـــن طلاقـــة النفس، وامتداد الصوت، وانبعاثه، وإثارة أشجان النفس، وتنبيه السامعين إلى عظم المصاب.

ونداء العين من أكثر ما نادى به شعراء المراثي؛ لاستثارة الدمع والحســـرة والألم لفراق النبي ﷺ، وكأنهم لشدة ما عانوا من ألم الفقد، ووجع الفراق ينادون ما لا ينادى، ويخاطبون ما لا يعقل، وتبرز ظاهرة نداء الشعراء لأعينهم وتشخيصـــهم لها، وجعلها كائنًا حيًّا يسمع ويجيب، لتصوير ما يعتلج في نفوسهم من شدة الحزن والوجد والحنين، وطلبًا منها لسح الدمع وانهماره؛ لاستحقاق المفقود لما هو أكثـــر من ذلك، وفيه إظهار لشدة المعاناة والحسرة لفقده ﷺ؛ فالنداء يوقظ النفس ويلفت الذهن، فإذا جاء الأمر بعده صادف نفسًا قد استعدت وتهيأت، فيقع منها موقعًـــا حسنًا، فهذا الصديق ينادي عينه ويأمرها بكثرة البكاء، فيقول[2]: (من المتقارب)

يَاعَيْنُ فَابْكِي وَلاَ تَسْأَمِي • وَحُقَّ الْبُكَاءُ عَلَى السَّيِّدِ

ينادي عينه ويأمرها وينهاها وكأنها كائن حي ينتبه إلى أهمية ما يأتي مـــن الكلام، وبعد فرضية تشخيصها يأمرها بالبكاء على سبيل الاستعارة بالكنايـــة، وفي

---

(١) ينظر: دلالات التراكيب (دراسة بلاغية): أ.د/ محمد محمد أبو موسى، ص ٢٧٧، مكتبـــة وهبـــة ـــ القاهرة، ط٤، ١٤٢٩هـــ ـــ ٢٠٠٨م.

(٢) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٣٦.

إضافة فاء التعقيب إلى فعل الأمر ما يوحي بسرعة الطلب، فالأمر عاجل ولا مجـــال لتأخيره، ثم عطف على طلب البكاء النهي عن السأم منه، فهو بكـــاء مســـتمر لا يتوقف، ولا تمله العين مهما طال.

كما يقدم لها في الشطر الثاني العلة والسبب لهذا النداء وما صاحبه من أمر ونهي، فقال: (وَحُقَّ البُكَاءُ عَلَى السَّيِّد)، وفي إعادة لفظ البكاء مع ما اشتق منه ما يتناسب مع تلك النفسية الحزينة الملتاعة.

وفي تعريف (البُكَاء) ما يوحي بالعموم والشمول، فكل صور البكاء وأشكاله حقيق بهذا السيد أن تذرف لأجله، وفي التعبير بالسيد كناية عن موصوف، فتلك صفة واحدة من صفات لا يحيط بها الوصف استحقت هذا البكاء الذي لا يسأم، فما بالنا بالصفات الأخرى!.

***

وهذا كعب بن مالك ينادي عينه ويأمرها بالبكاء، فيقول[1]: (من المتقارب)

يَاعَيْنُ فَابْكِي بِدَمْعٍ ذَرَى[2] ● لِخَيْرِ البَرِيَّةِ وَالْمُصْطَفَى

فوصف الدمع الذي أمر عينه بسرعة بكائه أن يكون دمعًا غزيرًا متصبِّبا، وجاء بعلة هذا النداء بذكْر وصفَيْن للنبي ﷺ (خير البرية) و(المصطفى)، والتعريف باللام والإضافة للتعظيم والتفخيم، فرؤية كعب بن مالك للفقد تمثلت في هاتين الصفتين: الأولى صفة شاملة لكل الصفات (خَيْرِ البَرِيَّة)، ثم عطف الخاص على العام، بقوله: (المُصْطَفَى)، فكل شاعر من الصحابة صور لعينه الوصف الذي يرى النبي ﷺ حقيقيًّا بالبكاء من أجله، وإن كانت صفاته ﷺ لا يحيط بها وصف، إلا أن كلًّا منهم جاء بما أسعفته به لغته، وبما ظهر وطغى على مشاعره، وبما افتقده بفقدهﷺ.

***

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ١١٥.

(٢) ذرا الدمع: ما انصب منه، اللسان، مادة: (ذَرَى).

وحسان بن ثابت ينادي عينه ويأمرها وينهاها، فيقول[1]: (من البسيط)

يَا عَيْنُ جُودِي بِدَمْعٍ مِنْكِ أَسْبَالِ ● وَلاَ تَمَلنِّ مِنْ سَحٍّ وَإِعْوَالِ[2]

حزن شاعر الإسلام حزنًا شديدًا لانقطاع الوحي، ولُحُوق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، وظهرت في مرثياته معاني الحزن والصدمة المزلزلة التي ألمت بالأمة الإسلامية، حتى إنه زهد الشعر بعد وفاة النبي ﷺ، وآثر حياة العزلة والانزواء.

وهو يطلب من عينه أن تجود بدمع، وفي التعبير بالفعل (جُودِي) ما يوحي بالضراعة والتوسل في هذا الطلب، فالجود فيه معنى التكرم والسخاء والتفضل، فهو رفيق في طلبه، ويؤكد معنى اللين والرفق إضافة الدمع إلى ضمير الخطاب العائد إلى العين (مِنْك)، وكأن هذا الدمع قد تفضلت وجادت به عينه، ثم وصف هذا الدمع بكونه (أَسْبَال) أي كثير الانهمار، وفي مجيء هذه الصيغة ما يدل على الكثرة والغزارة.

وكما فعل الصديق من نهي عينه عن السأم، كذا حسان نهى عينه عن الملل، وهو ناجم عن شعور داخلي بالعجز، وانعدام الطاقة.

والسأم شعور ينتاب المرء عندما لا يوجد ما يستأثر باهتمامه، وكأنه يعمل عملًا روتينيًّا لا هدف وراءه؛ لذا كان وصف أبي بكر للنبي ﷺ بالسيد ملائمًا للنهي عن السأم، فهو السيد الجدير بالاهتمام، وسح البكاء بلا انقطاع، فهو المنبع والهدف الذي لا ينتهي الحزن المنبعث على فقده.

أما حسان الذي وصف دمعه بالإسبال، ونهاه عن الملل من كثرة السح والعويل، تلك الأفعال تصيب الإنسان بالعجز وانعدام الطاقة، فالدلالة المعجمية لتلك الألفاظ المستخدمة ساعدت في إبراز المعنى العام الذي استهل به كل من الصحابيين الجليلين مرثيتهما.

***

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٧٨.

(٢) أسبلت السماء: إذا كثر مطرها، والسح: الصب، اللسان، مادة: (سبل، سحح).

وإذا انتقلنا إلى عمات النبي ﷺ، فنرى صدق العاطفة ولوعة الفراق ونداء العين بتحدر الدمع الغزير، تقول السيدة صفية[1]: (من البسيط)

يَا عَيْنُ، جُودِي بِدَمْعٍ مِنْكِ مُنْحَدِرِ ● وَلاَ تَمَلِّي، وَبَكِّي سَيِّدَ البَشَرِ

فجاء المطلع متوافقًا مع مطلع حسان، إلا أنها وصفت الدمع بكونه منحدرًا، بصيغة اسم الفاعل، بدلالته على استمرار سقوط الدمع، وعطفت النهي على الملالة على الأمر، ثم عطفت فعل الأمر (بَكِّي) تكرارًا لمعنى البكاء، إلا أن هذا الأمر فيه شدة وغلظة فهو أمر حقيقي بالبكاء، بخلاف الفعل جودي وما فيه من لطف في الطلب، ووصفها للنبي ﷺ بـــــ (سَيِّدَ البَشَر) تعليل للأوامر السابقة.

***

وفي مرثية أخرى تستهلها السيدة صفية بما استهلت به سابقتها إلا أن حرف النداء جاء مغايرًا فقالت[2]: (من الطويل)

أَعَيْنَيَّ، جُودَا بِدَمْعٍ سَجَمْ ● يُبَادِرُ غَرْبًا[3] بِمَا مُنْهَدِمْ

إلا أنها وصفت الدمع بكونه (سَجَمًا)، وهو وصفٌ بالمصدر يدل على ثبوت سيلان دمع عينها مع غزارته، رسمت صورة لتأثير انهمار الدمع ببراعة واقتدار، فجعلت لهذه الدموع المنهمرة حفرة في وجهها أشبه بالدلو، فيستقر فيها الدمع، وهذا الدلو في بئر متهدمة، فأثر الدمع على خديها صنع حفرًا متعددة يركن فيها الدمع، يا لروعة هذا التصوير! ودقة روافده المستوحاة من البيئة! ويا لحسرة السيدة صفية وشدة لوعتها على فقد ابن أخيها من ناحية، وفقدها للنبي المرسل من رب العالمين من ناحية أخرى!، فاجتمعت عليها الأحزان، والتجأت للدموع لتنفس عنها ما يَجْشَم على صدرها.

***

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٢٩٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩٥.

(٣) الغَرْب: الراوية التي يحمل عليها الماء والدلو. اللسان، مادة: (غرب).

ومع عمة أخرى من عمات النبي ﷺ لنرى كيف وظفت نداء عينها لتستجدي دمعها حزنًا وألمًا لفقد النبي ﷺ، فتقول السيدة عاتكة بنت عبد المطلب[1]: (من الطويل)

يَا عَيْنُ جودِي مَا بَقِيتُ، بِعَبْرَةٍ ● سَحّا[2] عَلَى خَيْرِ البَرِيَّةِ أَحْمَدِ

استهلت مرثيتها بما استهل به سابقوها من نداء للعين بأن تجود، ولكنها فصلت بين الفعل ومتعلقه (بِعَبْرَة)، بقولها: (مَا بَقِيت)، وكأنها بهذا الاحتراس تضمن لعينها أن يكون بكاؤها أبديًّا، فهو أمر بديمومة البكاء، ولعل دوام البكاء مدة حياتها هو الذي جعلها تؤثر التعبير بـ (عَبْرَة) بدلاً من دمعة؛ لأن العبرة هي الدمعة المقرحة في العين؛ لعبورها من أحد الجانبين إلى الآخر[3]، وتعبر عن المشاعر العميقة الحزينة، فقد تُذرف الدمعة لأجل الحزن، ولأجل غيره من قرح أو تعب أو ذكرى مؤثرة، ولكن العبرة لا تكون إلا بأحر الدمع وأثخنه، وأشد الحرقة وأوجعها، ثم ما لبثت أن أتت بالعلة والسبب الذي يقتضي هذا الحزن الأبدي، فقالت: (سَحّا عَلَى خَيْرِ البَرِيَّةِ أَحْمَد)، فهي ليست عبرة واحدة، ولكنها عبرات متتالية منهمرة؛ لكونها على خير البرية، وفي هذا ما يستدعى تلك العبرات الساخنة، ثم جاء البدل بذكر لفظ أحمد؛ لتؤكد أحقيته بالأمر الذي صدر لعينها.

وإن كان الغالب في نداء العين مجيئه (باليَاء) وذلك تنبيهًا لعظم الأمر، وتنبيهًا لعينه على عظم الخطب الداعي إلى ذرف الدموع، وشحذ الهمة والعزيمة في بكاء خير البشر، إلا أن عاتكة بنت عبد المطلب نادت عينها بالهمزة وأمرتها

---

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٣٣٠.

(٢) سحّ الماء: صبَّه صبًا متتابعًا، اللسان، مادة: (سحح).

(٣) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص٤٧، تعليق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية.

قائلة[1]: (من الطويل)

أَعَيْنَيَّ، جُودَا بِالدُّمُوعِ السَّوَاجِمِ ● عَلَى الْمُصْطَفَى بِالنُّورِ مِنْ آلِ هَاشِمِ

فاستهلت مرثيتها بنداء عينيها وإن كانت في المطلع السابق قد نادت عينًا واحدة، إلا أنها هنا قد جمعت نداء العينين معًا، وأمرتهما أمرًا تبرز فيه الحسرة والتوجع والألم ووصفت الدموع بكونها سواجم، كما سبق وأن وصفت السيدة صفية دمعها بكونه (دَمعًا سَجمًا) أي: كثير منهمر، فالألفاظ والعبارات في مراثي الصحابة تبدو متقاربة، وخاصة إذا صدرت من أهل بيت النبي ﷺ؛ لتقارب العاطفة والظروف البيئية لكل منهم، فتشابه الباعث أدى إلى تشابه تلك الحمم التي قذفتها القلوب المتأججة لوعة وحزنًا، وتعريف الدموع بلام الاستغراق الدَّالة على استغراقها كل صنوف الدمع، كما وصفتها بالسواجم بالتعريف؛ لشمول الوصف وعمومه، وإن وصفت النبي ﷺ في مطلعها السابق بـــــ(خَيْرِ البَرِيَّةِ) نجدها قد وصفته هنا بـــــ(المُصْطَفَى بِالنُّور) فكنَّت عن فقيدها بهذا الوصف، وهذه الكناية تفتح لنا بابًا واسعًا لتخيل وإدراك ما وراء هذه الصورة المعلنة، وإشراك المتلقي في بناء هذه الصورة (فالمُصْطَفَى بِالنُّور) يحمل في جنباته أسباب هذا الاصطفاء وتعدد هذه الأسباب، من كريم خلق، وهداية للخلق، وتلقيه للوحي، إلى غير ذلك من الصفات التي حملتها الكناية في طياتها وألقت عليها ظلالها، وفي قولها: (مِنْ آلِ هَاشِم) إيغال حسن، أرادت أن تعلن عن صلتها بالنبي ﷺ، وعن انتمائه إلى قبيلتها؛ ليكون ذلك أدعى لأمر عينيها بالبكاء عليه، فهو حقيق بتلك الدموع السواجم؛ لعلتين: إحداهما: كونه (المُصْطَفَى بِالنُّور) والأخرى: كونه من آل هاشم، وفي تعريفه باللام (المُصْطَفَى بِالنُّور) ما فيه من العظمة والإجلال.

***

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٣٣٥.

ومع صحابية أخرى تنادي عينها وتأمرها فتقول هند بنت الحارث بن عبد المطلب[1]: (من البسيط)

يَا عَيْنُ جُودِي بِدَمْعٍ مِنْكِ وَابْتَدِرِي[2] ● كَمَا تَنَزِّلَ مَاءُ الغَيْثِ فَانْبَعَثَا[3]

فتستهل مرثيتها بذلك النداء المتبوع بأمر فيه رفق ولين، فالجود هو بذل ما في النفس عند حاجة الآخرين له، فبثت بذلك الأمر إلى عينها شدة حاجتها إلى ذلك الدمع، فضلًا عمّا أفادة الجار والمجرور (مِنْكِ) من الدلالة على الاستجداء في الطلب، فهذا دمع العين خاصة وهي تجود به إلى من يحتاج إليه، ثم تعطف بالواو (وَابْتَدِرِي) لتصل بين الأفكار وتربط بينهما ربطها بين الجمل والكلمات، فالشاعرة في مقام استجداء العين بالبكاء، وجمعت الأمر بالابتداء على الأمر بالجود؛ لئلا تترك لها حرية الجود بما تشاء، فالجود المرجو هو دمع مسال وليس متقطعًا، ولجأت إلى التشبيه لتوضح صورة هذا الدمع المستحق والمرجو، فقالت في المصراع الثاني: (كَمَا تَنَزِّلَ مَاءُ الغَيْثِ فَانْبَعَثَا) فهي صورة موحية لعبت فيها التراكيب دورًا بارزًا في توضيحها، حيث جاءت زيادة مبنى الفعل (تَنَزِّل) بالتاء والتشديد، دلالة على زيادة المعنى، وفي تنكير لفظ (مَاء) ما يدل على غزارته، كما أضاف الماء إلى الغيث بما يوحي بأن دمع العين مغيث لها، ومطفئ لحرقة قلبها، فضلًا عن دلالة الفاء في (فانْبَعَثَا) من المبادرة إلى الفعل، واختيار لفظة (انْبَعَثَا) ببنية أحرفها هذه وما تضمنته من جرس قوي يوحي بقوة سقوط ماء الغيث المشبه به ماء دمعها.

***

(١) المرجع السابق، ص ٣٢٧.

(٢) ابتدري، أي: سيلي بالدمع، اللسان: مادة: (بدر).

(٣) انْبَعَثَا: سال وجرى بشدة، اللسان: مادة: (بعث).

وقد يحذف حرف النداء وتبادر بخطاب عيونهم بالبكاء كما في استهلال أم أيمن بقولها[1]: (من الخفيف)

عَيْنُ، جُودِي؛ فَإِنّ بذْلَكِ لِلدَّمْـــ ● ـــعِ شِفَاءٌ، فَأَكْثِرِي مِلْبُكَاءِ

فهي موجوعة مكلومة ترى في دموع عينها ما يخفف عنها هذا الوجع، فتسارع إلى خطاب عينها آمرة إياها بالبكاء، مؤكدة على جدوى هذا الدمع مشيرة إلى الجود؛ (بذْلَك) تأكيدًا على أهميته بشدة احتياجها له؛ ثم جاءت بإيماءة موسيقية رفيعة، فيها لحن وإشجاء، فلجأت إلى التدوير في لفظ (الدمع) وهو ـــــ فضلًا عما فيه من كسر رتابة الوقفتين على رؤوس الشطرين ـــــ له أثر في معنى الحزن الجاشم على صدر أم أيمن، وكأن نفسها قد ضاقت بمهجتها حتى كادت تنفصل عنها؛ لذا ضاق الشطر عن أن يمسك بالصدر، فانفصل عنه إلى العجز، ولفظ (الدمع) الذي اختارته الشاعرة للتدوير، هو من أليق الألفاظ التي يدور عليها المعنى في البيت، ليقف عندها المتلقى، فجاء التدوير مرآة لما يجيش في صدرها، وكان امتداد حروف الكلمة متلاحمًا مع امتداد جريان دمعها، وتستمر في توجيه الأمر إلى عينها ومخاطبتها خطاب من يعقل، فقالت: (فَأَكْثِرِي)، وللفاء دور في سرعة تنفيذ هذا الأمر، كما كان للقاعدة النحوية التي تقضي "بحذف نون من الجارة قبل لام التعريف"[2] أثرٌ في إفادة السرعة في الطلب، فهي ملتاعة، ينفطر قلبها حزنًا على فقد النبي ﷺ ، كيف لا؟! وهي من كان يقول فيها النبي ﷺ:" أُمّ أَيْمَنَ أُمّي بَعْدَ أُمّي "[3]، و" كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لِأُمِّ أَيْمَنَ: يَا أُمَّهْ، وَكَانَ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا قَالَ: هَذِهِ بَقِيَّةُ أَهْلِ بَيْتِي "[4].

***

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٣٢٦.

(٢) شرح ابن عقيل، ٢٦٩/١، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث ـــــ القاهرة، ط٢٠، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م..

(٣) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، ١٢٤/٧، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي ـــــ بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

(٤) أخرجه الحاكم في مستدركه، ينظر: المستدرك على الصحيحين: أبو عبد الله الحاكم محمد النيسابوري، ٧٠/٤، كِتَاب: مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ ﷺ: ذِكْرُ أُمِّ أَيْمَنَ مَوْلَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَحَاضِنَتِهِ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ١٤١١ هـ ـ ١٩٩٠م.

ومنهم من يأمر عينه بالبكاء وإن لم يصرح بالعين واكتفى بالضمير، وهو عمرو بن الفحيل الزبيدي[1]، يقول[2]: (من الخفيف)

أَسْعِدِينِي بِدَمْعِكِ الرِّقْرَاقِ ● لِفِرَاقِ النَّبِيِّ يَوْمَ الفِرَاقِ

ذلك الصحابي الجليل الذي أضناه فَقْد النبي ﷺ، فعمد إلى الشعر ينفث فيه طاقة الحزن الجاشم على صدره، فرثاه بمرثية تقطر ألمًا ولوعة، مطلعها جملة إنشائية، يأمر فيها عينه بأن تعينه على البكاء، وتسعفه بدموع تجري على خديه، " وهذا البيت يعد من أجود مطالع المراثي وأبرعها؛ لسهولته ويسره وموسيقاه، وسر جماله في التكرار، فقد تكررت الراء والقاف وبينهما حركات مد طويلة يرتاح عندها صوت المنشد، وتأنس إليها ترانيمه الخافتة، في كلمات "الرِّقرَاق" و"فِرَاق" و"الفِرَاق"، وكانت حركات المد الطويلة قد وقعت مرتين في كلمة " أسعديني" فزادت من طراوة البيت"[3]، وإن كان المقصود بالإسعاد هنا هو معاونة الشاعر على حزنه، فإن لمفهومه الأشهر أثرًا في الدلالة على معناه؛ حيث يجعل الشاعر من الدمع إسعادًا له، لتخفيفه من أثر الحزن والوجع.

كما قدم الشاعر علة للأمر جاءت في المصراع الثاني، فقال: (لِفِرَاقِ النَّبِيِّ يَوْمَ الفِرَاق)، وتعريف النبي ﷺ بصفته يتماشى مع نفسية ذلك الصحابي الذي فقد النبي المرسل بوحي السماء، وفي ذكر الظرف (يَوْمَ الفِرَاقِ) ما يهيج الحزن ويثير الدمع، فيكون عونًا لعينه على تلبية ما طلبه منها.

وكان للتصريع بقافيته المكسورة جرس خاشع لين أضفى على البيت من الحنين والأسى ثوبًا ساترًا.

***

(١) عمرو بن الفحيل الزبيدي: ذكره وثيمة في كتاب (الرّدّة) عن ابن إسحاق، وكان مسلمًا مهاجرًا. الإصابة في تمييز الصحابة، ٥٥٤/٤.

(٢) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ١٨٤.

(٣) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ١٨٤.

وكما نادت أم أيمن عينها دون حرف نداء، كذا فعلت عاتكة بنت عبد المطلب، فقالت[1]: (من البسيط)

عَيْنَيَّ جُودَا طَوَالَ الدَّهْرِ، وَانْهَمِرَا ● سَكْبًا وَسَحًّا بِدَمْعٍ غَيْرِ تَعْذِيرِ

فاستهلت مرثيتها هذه بما استهلت به مرثيتها السابقة[2]:

يَا عَيْنُ جودِي مَا بَقِيتُ، بِعَبْرَةٍ ● سَحّا عَلَى خَيْرِ البَرِيَّةِ أَحْمَدِ

إلا أنها هنا نادت عينيها وليست عينًا واحدة، فضلًا عن حذف حرف النداء بما يوحي بالمبادرة إلى ما تريد، فسرعة الموقف وشدته جعلتها تذهل عن ذكر حرف النداء، فهي تريد أن يصل طلبها إلى العين بأقصى سرعة، وإن حددت في البيت السابق زمن البكاء بـــــ(مَا بَقِيت)، فقد كان الزمن هنا أرحب وأوسع، فقالت: (طَوَالَ الدَّهْر)، وأضافت هنا أمرًا آخر على (جُودَا) وهو قولها: (وَانْهَمِرَا)، فليس الجود المرجو هو جود قليل، لكنه دمع منهمر غزير، وأكدت مرادها بالمفعول لأجله، فقالت: (سَكْبًا) وكأن العين إناء مليء بالدموع، فينسكب الدمع منه دَفعة واحدة، ثم عطفت عليه مفعولًا آخر، فقالت: (سَحًّا) وجمعت بينهما بالواو؛ لأنها في مقام الاستكثار من الدمع، وتطلب من عينيها أن تجود بكل صور الدمع، فجاءت الألفاظ الدالة على ذلك من واد واحد (انْهَمِرَا، سَكْبًا، سَحًّا) وذلك ما يعرف بمراعاة النظير ، ثم ختمت مطلعها بذلك الاحتراس، فقالت: (غَيْرِ تَعْذِيرِ) وإن كان المتعاطفان (سَكْبًا، وسَحًّا) يفيان بالمعنى أكثر من عبارة الاحتراس، إلا أن الشاعرة ارتبكت أفكارها لارتباك مشاعرها ونفسيتها، فجمعت بين عبارتها بصورة غير مرتبة.

وكان لاستعمال (الواو) العاطفة دلالة واضحة لربط أجزاء المطلع وتماسك تلك الأجزاء ضمن دائرة إيقاعية واحدة، وكأنها قالب فني واحد في نسق شديد الانسجام، وهو من وسائل الاتساق والانسجام في المطالع

***

(١) المرجع السابق، ص ٣٣٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٣٠.

ومن الصحابة من توجه بندائه إلى أحد الصحابة فيقول[1] ابن النعمان العتكي[2]: (من الكامل)

يَاعَمْرُو، إِنْ كَانَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ● أَوْدَى بِهِ الأَمْرُ الَّذِي لاَ يُــدْفَعُ
فَلَقَدْ أُصِبْنَا بِالنَّبِيّ، وَأَنفُنُــا ● وَالرَّاقِصاتِ[3] إلى البَنِيَّةِ؛ أَجْدَعُ

فينادى عَمْرًا بن العاص ليطمئنه، ويسدي النصح له، وتأتي جملة الشرط بأداة أصل وضعها للمشكوك في صحته، وذلك تمشيًا مع حال الذي زلزلته الواقعة، ويخشى عليه من عدم الثبات، فدلالة (إن) على الشك تتناسب مع حالة عمرو بن العاص، وذكر النبي ﷺ باسمه وصفته (النبي محمد) ليقرر الأمر ويثبته فضلًا عن تعظيمه، و لم يذكر اسم الموت صراحة نزولًا على حالة المنادى؛ لئلا يؤلمه بذكر لفظ الموت، فكنى عنه بكونه (الأَمْر الّذِي لاَ يُدْفَع)، وفي اختيار هذا التعبير الكنائي دون غيره، ما يتلاءم مع سياق التثبت الذي دارت حوله المرثية، واستهل كلامه به، فهو يوحي بخروج الأمر عن القوة والحول، ثم يأتي جواب الشرط بجملة خبرية مؤكدة وقاطعة للأمر (فَلَقَدْ أُصِبْنَا بِالنَّبِيّ)، وهذا تعبير كنائي أيضًا بدلًا من قوله: فلقد مات النبي ﷺ؛ ليؤكد له على عموم البلوى للجميع، وجاء الاعتراض بجملة القسم (وَالرَّاقِصاتِ إلى البَنِيَّة) لتأكيد الغرض المسوق له الكلام، وهو خبر وفاة النبي ﷺ، وفصلت الجملة الاعتراضية بين الموصوف (أَنفُنا) وصفته (أَجْدَع) وهي كناية عن الحزن الشديد مع التسليم بعدم الحول والقوة، فقد طالت آثار الحزن كل جوارحهم، حتى أنوفهم أصابها الانكسار من شدة الحزن والأسى.

***

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ١٧٩.

(٢) هو: عقبة بْن النعمان العتكي، أَتى رَسُول اللَّه ﷺ حين مات، وهو من أهل عمان، ذكره وثيمة، قاله ابْنُ الدباغ فيما استدركه عَلَى أَبِي عمر. أسد الغابة، ٥٥٨/٣.

(٣) الراقصات: الإبل، وهذا قسم بمن، والبينة: اسم من أسماء مكة. المراثي النبوية ص١٧٣، نقلًا عن معجم البلدان:ياقوت الحموي، باب: الياء، دار الفكر ــ بيروت، د.ت.

ويأتي النداء بالهمزة لقرب المنادى كما استهل سالم الغَطَفَانِيّ[1] مرثيته بقوله[2]: (من المتقارب).

أَفَاطِمُ بَكِّي وَلاَ تَسْأَمِي ● لِصُبْحِكِ مَا طَلَعَ الكَوْكَبُ

افتتح مرثياته بنداء ابنة النبي ﷺ، فألقى ذكر اسم السيدة فاطمة في جو الحزن والألم، وانتقلنا معها إلى ما دار في ذلك اليوم من صراع وبكاء وحزن وفجيعة، فكان لذكر اسمها دلالة خاصة، فأَثَارَ صورة من صور الألم الشديد والبكاء الثخين، وانتقل بنا إلى مشهد ذلك اليوم، وأذاقنا من المرارة التي تجرعتها السيدة الفضلى في ذلك اليوم، وينتقل بنا المشهد إلى أولئك النسوة الملتفّات حول بنت رسول الله ﷺ الثكلى وهن يبكين بكاءين: بكاء لفقد الرسول ﷺ ، وبكاء لبكاء فاطمة، كل تلك الإيحاءات والدلالات حملها استهلال المرثاة باسم السيدة فاطمة، وكما جرت العادة أن يتبع النداء بالأمر، ولكنه أمر له دلالة على الألم والحسرة (بَكِّي)، وشاعرنا وإن كان أمره بالبكاء متجهًا إلى السيدة فاطمة؛ إلا أنه يأمر عينه به، بل يأمر كل من يتلقى هذا المطلع، وهو بكاء بلا انقطاع ولا ملل، ويؤكد على امتداد زمن البكاء في المصراع الثاني بقوله: (لِصُبْحِكِ مَا طَلَعَ الكَوْكَب).

***

وتستمر السيدة صفية في افتتاح جل قصائدها بنداء عينها وطلبها منها أن تساعدها بالدموع المنهمرة، فتقول[3]: (من الخفيف)

---

(١) هو: سالم بن مسافع بن دارة الشّاعر المشهور، قال أبو الفرج الأصبهانيّ: أدرك الجاهليّة والإسلام، ودارة لقب غلب على جدّه، واسمه يربوع بن كعب بن عديّ بن جشم بن بهثة بن عبد اللّه بن غطفان، ذكره أبو عبيدة، قال: وأخوه عبد الرّحمن بن دارة من شعراء الإسلام. الإصابة في تمييز الصحابة، ٢٠٤/٣.

(٢) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٢٢٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٩١.

عَيْنُ جُودِي بِدَمْعَةٍ وَسُهُودِ ● وَانْدُبِي خَيْرَ هَالِكٍ مَفْقُودِ

بهذا النداء المتفجع استهلت السيدة صفية رثاءها، وإن حذفت أداة النداء، وما ذاك إلا لسرعة الوصول إلى المنادى، والأصل في المنادى عيني بياء المتكلم، ولكنها حذفت واستغنت عنها بالكسرة، وفي الحذف مسارعة وإسراع إلى الطلب، ونداء العين يكاد يرى في كثير من قصائد الرثاء، فنرى العين المنتحبة الباكية، وصاحبها يصرخ ويطلب المزيد من انهمارها، ففي البكاء ما يبرد لظى القلب، ويسكن لوعة الفراق.

فنادت عينها وطلبت منها أن تجود بالدمع، واجتمع لها في هذه العبارة فنون بلاغية ثلاثة؛ حيث بدأت بالنداء محذوف الأداة، وفي نداء العين لون من التخييل، فتخيل العين إنسانًا ينادى ويتوقع منه الجواب، ثم توجهت بالأمر (جُودِي) وباعثها إليه، هو رغبتها الملحة في البكاء، الذي يُطْفِئ جمرة الأكباد المتقدة، ويريح الجوى.

وقالت في أمرها لعينها (جُودِي)، ولم تقل: ابْكِي كما فعلت في بعض مطالعها؛ لأنها لم تطلب من عينها البكاء وحسب، فهي باكية، ولكنه بكاء فيه سخاء، وإفراط وجود، وانهمار، وكما قالت الخنساء[1]:

إِنّ الْبُكاءَ هُوَ الشِّفَا ● ءُ مِنَ الجَوَى بَيْنَ الْجَوَانِح

وتعلق الطلب بأمرين: دمعة وسهود، فهي تطلب الجود بالدموع المنهمرة ، كما تطلب أن تحرم من النوم، فهي ترى أن الأرق لون من ألوان الحزن، فإسبال الجفون، ومخالدة النوم، لون من ألوان الدِعة والسكينة يتنافى مع حزنها على سيد الخلق.

(١) الوسيلة الأدبية للعلوم العربية، الشيخ حسين المرصفي، ٥٦/٢، مطبعة المدارس الملكية بدرب الجماميز ـــ القاهرة، ط١، ١٢٩٢هـ.

والتعبير بصيغة المبالغة (سُهُود) فيه إتمام للمعنى المراد، ومؤازرةٌ للجود المطلوب، ثم جاءت الواو لتكمل المعنى وتجمع بين أطرافه، كما جمعت بين العبارات فقالت: (وَانْدُبِي)، وفي الندب بكاء وعويل وصراخ لفقد الميت، فهو تأكيد معنوي لقولها: (جُودِي بِدَمْعَة)، فأعادت ذكر الخاص بالعموم، ثم كنَّت عن فقيدها بقولها: (خَيْر هَالِكٍ مَفْقُود)، وفي هذه الصفات ما يهيج الحزن، ويثير الأوجاع، ويستجدي العويل والبكاء.

وإن كنت لا أستسيغ تعبيرها بلفظ (هَالِك) وإن صدرته بقولها: (خَيْر) فهو اسم فاعل من هلك، ودلالته المعجمية عضدت ما في نفسي من استثقال لذلك الوصف في الحديث عن رسول الله ﷺ، " فمعنى هلك: أي هوى بين جبلين، أو سقط في هُوَّة سحيقة، يقال هلك الناس: أي استوجبوا النار والخلود فيها بسوء أعمالهم، وإن كان من معانيها الموت"(١)، إلا أن الشائع استخدامها في معانٍ لا تليق، ومقامات تبعد عن صفاته، عليه أفضل الصلاة والسلام .

ونحن نحيل كل ما في المراثي النبوية من نقد إلى الحالة النفسية التي سيطرت على الصحابة، وخاصة الصحابيات من آل بيت النبوة، فقد طاشت عقولهم من هول هذه الفاجعة، وأفقدتهم القدرة على انتقاء العبارات والألفاظ، فجرت على ألسنتهم في مثل هذا المقام، ولا يتنافى هذا مع عظيم تقديرهم وإجلالهم لفقيدهم، وعدم مماثلته لمن فقدوهم من قبل، ولكنها غلبة اللسان، وشيوع عبارات تناقلتها ألسنة النساء في مراثيهم السابقة، فضلًا عن قرب عهدهم بالعصر الجاهلي، وما كان يشيع فيه من عبارات الرثاء.

***

(١) اللسان ، مادة: (هلك).

ويتحسر حسان بن ثابت على فقد النبي ﷺ بعبارة يملؤها الحزن والأسى، فيستهل كلامه قائلًا[1]: (من البسيط)

يَالَهْفَ نَفْسِي عَلَيْهِ حِينَ ضَمَّنَهُ ● بَطْنَ الضَّرِيحِ عَلِيّ وَابْنُ عَبَّاسِ

بذلك المطلع الحزين الباكي يتحسر حسان على النبي ﷺ بذلك المطلع الموجع (يَالَهْفَ نَفْسِي)، ويأتي بزمن هذه الحسرة والفجيعة التي أصابته، فيقول: (حِينَ ضَمَّنَه) واختار لفظ (ضَمَّنَه)؛ لما يوحي به من معنى العناق والاحتضان، فكأنما الضريح عانق جسده الشريف فرحًا وحبًّا، وهو يشير بهذا إلى من قاموا بدفن النبيﷺ من أبناء عمومته الإمام على ، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم .

وجعل حسان زمن لهفته وتوجعه حين قُبر النبي ﷺ، وإن كانت البداية هي خبر وفاته، إلا أن نزول الفقيد إلى باطن الأرض يجهَز على أي أمل في بقائه في الدنيا، فقد قُبر الجسد الشريف، صلوات ربي وسلامه عليه، وانتهى بذلك عهد الرسالات، كما انتهى آخر عهد لأهل السماء بأهل الأرض، ولم يتبق لنا إلا الاستغفار، ليرفع الله عنا البلاء قال ـــ تعالى ـــ : **" وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ "**[2].

وفي تقديم المفعول (بَطْنَ الضَّرِيح) على الفاعل ما يهيج الأحزان، ويستحث الدموع من مآقيها، ويقوي داعي اللهفة والحسرة والتفجع، وأي وجعٍ يعدل وضع جسده الظاهر في بطن الضريح؟.

فكان الاستهلال باللهف، ودلالة لفظ (ضَمَّنَهُ)، وتقديم المفعول (بَطْنَ الضَّرِيحِ) ما قوى هذا الاستهلال الباكي، وجعل الدموع تتحدر من المآقي؛ حزنًا وكمدًا على خير مفقود.

***

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٧٧.

(٢) سورة الأنفال، آية رقم: (٣٣).

المبحث الرابع

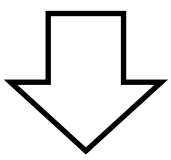

الاستهلال بالقسم

أسلوب القسم مما تردد في مراثي الصحابة للنبي ﷺ، والغاية منه توكيد المعنى، وتثبيت الأمر، وكأنهم يؤكدون لأنفسهم ولمن يستمع إليهم خبر وفاة النبيﷺ، وما يتبعه من أمور حلَّت بهم، فالقلوب كانت مرتجفة، والعقول طائشة، والعيون زائغة، فاحتاج الأمر إلى ما يوثق ويؤكد هذا الأمر، فلجأ الصحابة إلى القسم ليقرروا هذا الواقع الأليم.

ومن أبرز الصيغ التي استهل بها الصحابة مراثيهم صيغة (العمر)، والعَمْر ــ بفتح العين وسكون الميم ــ لغة في العمُر، وخصوا المفتوح بالقسم لخفة الفتح، فالقسم كثير الدوران على الألسنة، فهو قسم بحياة المخاطب به، وإذا دخلت عليه لام القسم " فرفعوه على الابتداء محذوف الخبر وجوبًا، والتقدير: لعمرك قسمي"[1].

وهو قسم وارد في القرآن الكريم، قال ــ تعالى ــ :"**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**"[2]، واستعمله الصحابة في مراثيهم، كقالب من قوالب الفداء أكثر منه صيغة من صيغ التعبد.

وكان مما أقسموا عليه، الحزن والأسى لفراق النبي ﷺ، ذلك الحزن الذي مازج الفؤاد من سواد، وجادت منه العين بالبكاء مما قد يستصغره الشاعر في حق النبي ﷺ، فأقسم لنفسه بهذا المعنى عمرو بن سالم الخزاعي[3]، قائلًا[4]: (من الطويل)

لَعَمْرِي لَئِنْ جَادَتْ لَكَ العَيْنُ بِالبُكَا • لَمَحْقُوقَةٌ أَنْ تَسْتَهِلّ وتَدْمَعَا

---

(١) ينظر: لسان العرب، مادة: (عمر).

(٢) سورة الحجر، آية رقم:(٧٢).

(٣) عَمْرو بْن سالم بْن كلثوم الخزاعي ركِبَ إلى رسول الله ﷺ، عندما كَانَ مِنْ أَمْرِ خُزَاعَةَ وَبَنِي بَكْرٍ بِالْوَتِيرِ، حتَّى قَدِمَ الْمَدِينَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُخْبِرُهُ الْخَبَرَ، وَقَدْ قَالَ أَبْيَاتَ شِعْرٍ، وبعدها قال له رسول الله ﷺ: نُصِرْتَ يَا عَمْرُو بْنَ سَالِمٍ. أسد الغابة، ٣/٧٢٢.

(٤) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٢٦٩.

فيضيف القسم إلى نفسه؛ لنسمع به ذلك الصوت الحزين الباكي الذي مات ناصره، ويستهل به الإبانة عن عظيم قدره ﷺ في نفسه، ونسمع صدق مشاعره.

وفضلًا عن دلالة القسم على تأكيد معنى الحزن، جاء الشرط ليؤكد ما أكده القسم فقال: (لَئِنْ جَادَت)، فهو حديث نفس يلجأ إليه الشاعر، ليخلوا بها ويستخرج من داخله تلك الزفرات المكتومة، فبعد أن بدأ بضمير التكلم قائلًا: (لَعَمْرِي) انتقل إلى ضمير الخطاب (لَكَ)، وكأنه أراد أن يخفف على نفسه ما بها من ألم، فانتقل إلى خطاب غيره ليبثه مشاعره وآلامه، وذكر لفظ (البُكَا) على الرغم من دلالة (جَادَتْ لَكَ العَيْن) ففي ذكره ما يبقيه في دائرة الأحزان، ويعمق الدخول في تلك الدائرة، ثم جاء جواب الشرط مسبوقًا باللام فقال: (لَمَحْقُوقَة)، وكأن هذا البكاء الذي جادت به عينه حق على عينه أن تذرفه وتجود به، فليس هناك ما يستحق هذا الدمع ما هو أجل مصيبة من فقد النبي ﷺ .

***

وهذا حسان بن ثابت يفجر فيه فَقْدُ النبي ﷺ ينابيع الشعر الحزين والعواطف المكلومة في نفسه، وتصاغ خواطره في قالب الشعر البديع، ويتجلى حبه العميق، وولاؤه لهذا النبي العظيم ﷺ، فيقسم قائلًا[1]: (من البسيط)

آلَيْتُ حِلْفَةَ بَرٍّ غَيْرِ ذِي دَخَـلٍ • مِنّي أَلِيَّةَ بِـرٍّ غَيْـرِ إِفْنَـادِ.

بِاللَهِ مَا حَمَلَتْ أُنْثَى وَلا وَضَعَتْ • مِثْلَ النَبِيِّ رَسُولِ الرَّحمَةِ الهَادِي

فهو يحلف يمينًا صادقًا لا كذب فيه، ويؤكد على صدق يمينه بصور متعددة، فبعد أن وصف يمينه بكونه (بَر) أكد ذلك بكونه (غَيْرِ ذِي دَخَل)، ثم

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٧٠.

أضاف ذلك اليمين إلى نفسه بقوله: (مِنّي) لتقع المسئولية عليه، فهو أدرى بحاله ومدى صدقه في كل ما ينطق به وما يقسم عليه، ثم يمتد التأكيد ويستمر، فيقول: (أَلِيَّةَ بِر) ولا يُنهي بيته الأول إلا بإصرار على صدق قسمه، فيقول: (غَيْرِ إِفْنَاد)، ثم يأتي البيت الثاني بالمقسم به وهو لفظ الجلالة (بالله) وما يوحي به من رهبة الجلال والهيبة واليقين، ومن خلال أسلوب القصر يفصح الشاعر عن المقسم عليه، فيقول: (مَا حَمَلَتْ أُنْثَى وَلا وَضَعَتْ)، فنفى أن يكون للنبي ﷺ مثيلٌ في حمل ولا وضع، فالمنفي هو المماثلة، لا مجرد الحمل والوضع، وبعد أن وصف المقصور عليه بكونه النبي ﷺ جاء البدل ليؤكد الوصف بصفة الرسالة فقال: (رَسُول)، ثم أضاف إليه صفة الرحمة، وخصت تلك الصفة دون عداها من صفات لكونها الصفة التي وصفه بها المولى ﷻ، فقال:" وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ "[1] ، ثم وصف النبي ﷺ بكونه هاديًا، فهو يفتقد فيه هذين الوصفين، ويقسم ليؤكد على هذين الوصفين، وتفرُّد النبي ﷺ بها دون سواه، فكان الاستهلال بالقسم مقررًا لما وقر لدى الشاعر من هذه الحقائق ـــــــ وإن كانت لا تحتاج إلى تأكيد ـــــــ، إلا أن الشاعر أراد أن يقرر هذه المعاني لما جاء بعدها من رثاء.

***

ولما أبدى عمر الفاروق عدم تصديقه لموت النبي ﷺ جاء ليقر ويؤكد نبأ وفاته وأن الحزن هو الذي دفع به إلى ذلك، فلجأ إلى القسم ليؤكد الأمر، فقال[2]:(من الطويل)

لَعَمْرِي لَقَدْ أَيْقَنْتُ أَنَّكَ مَيِّتٌ • وَلَكِنَّمَا أَبْدَى الَّذِي قُلْتُهُ الجَزَعْ

(١) سورة الأنبياء، آية رقم: (١٠٧).

(٢) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ١٢١.

فإن "صحت نسبة هذه القصيدة إلى الفاروق"[1]، فقد استهلها بالقسم بلفظ (لَعَمْرِي) الذي أضافه إلى ضمير نفسه، مؤكدًا على تصديقه على وفاة النبي ﷺ، ولا شك أن الفاروق لم يقل ذلك إلا بعد أن هدأت نفسه وعاد إلى سابق عهده، فقد فجعته الصدمة وأفقدته السيطرة على نفسه، فلما هدأ أقسم بأنه متيقن من وفاة النبي ﷺ ، و لم يبدأ القسم منفردًا بالتأكيد ولكن تآزرت معه وسائل شتى، منها: حرف التحقيق (لَقَد)، ثم جاء الفعل الماضي بدلالته على التحقق (أَيْقَنْتُ)، وإضافة تاء الفاعل، و لم يلبث أن اتجه بخطابه إلى النبي ﷺ (أَنَّكَ) وكأنه يستحضر وجود النبي ﷺ ليقدر المقسم به المستحق لكل المؤكدات، فوفاته ليست بالأمر الذي يسهل التصديق به، لا سيما من الفاروق رضي الله عنه، ثم يستدرك ويعلل لنا ما بدر منه من إنكار لوفاته ﷺ، ومن كونه غاب كما غاب موسى ـــــ عليه السلام ـــــ وسيرجع مثله، ورد كل ذلك إلى الجزع، وعبر بالفعل (أَبْدَى)، وكان هذا أمرًا ظاهرًا لا يعبر عن داخله الذي يتيقن تمامًا بوفاته ﷺ، أو هي أمنيات نفسه التي عبر عنها بلفظه، وفي تأخير الفاعل (الجَزَع) وختم مطلعه به لكونه هو سيد الموقف وبيت القصيد، الذي يحمل المسؤولية في كل ما بدا منه، والتعبير بالمصدر (الجَزَع) دون غيره من المشتقات؛ قصدًا إلى التهويل والتفخيم، فهو جزع لا حدود له، وإسناد الأمر إلى الجزع يخيل إلينا الجزع وكأنه إنسان لديه القدرة على الأمر والنهي، فلا يستطيع أن يشمله زمن أو يحيط به وصف، ذلك الجزع الذي أفقده القدرة على التصديق بما هو أمر واقع لا شك فيه ولا مراء، فكان الاستهلال بالقسم واقعًا في موقعه؛ حيث كان التوكيد ضرورة لمن يلقي الشعر ولمن يلقي إليه؛ لإقرار ما عجزت العقول عن الإقرار به.

***

(١) مراثي الصحابة، ص ١٥٣.

ويأتي القسم في تذكير أهل اليمن بأن المولى ﷻ حي لا يموت، فلن يموت الدين بموت النبي ﷺ، فيقول[1] الشاعر اليمني عبد الله بن مالك[2]:

لَعَمْرِي لَئِنْ مَاتَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ● لَمَا مَاتَ يَاابْنَ القَيْلِ رَبُّ مُحَمَّدِ

فلما حدثت الردة بعد وفاة النبي ﷺ بادر المخلصون من أهل اليمن ببذل جهودهم؛ لردهم إلى حديقة الإسلام الغنّاء، وتذكيرهم بأن وفاة النبي ﷺ أمر حتمي؛ لكونه بشرًا، وهذا ما أفاده التعبير باسمه (مُحَمَّد) فأقسم لهم هذا الصحابي الجليل ليؤكد لهم كلامه، وجاء بأسلوب الشرط ليقع المقسم عليه في صورة مؤكدة، فيضيف تأكيدًا إلى تأكيد، فضلًا عن دلالة الزمن الماضي (مَات)، وما توحي به من تحقق الموت، ثم كان لطباق السلب دور في هذا التأكيد، بين (مَات) و(مَا مَاتَ)، وخص بالنداء (يابْنَ القَيْل)، وهو "ملك من ملوك حمير خاصة "[3]؛ لكونه رأس المملكة، ورعيته يأتمرون بأمره، فيكفي خطابه عن خطاب الرعية، وفصل بجملة النداء بين الفعل والفاعل؛ لكونه هو المقصود بهذا الخطاب، ولجذب انتباهه إلى الخطاب، ومجيء لفظ (الرَب) يوحي بالحنو والرعاية والاهتمام، فهو مطّلع على خفايا صدوركم، فكان للقسم موقعه الذي لا يقوم به غيره في مطلع هذه القصيدة، التي جمعت بين الرثاء والحث على العودة إلى دين الله، فالأمر فيه من الخطورة ما يستدعي التأكيد بكل صور التأكيد وأشكاله.

---

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ١٧٤.

(٢) هو: عبد اللّه بن مالك الأرحبي، كان من أصحاب النبيّ ﷺ، له هجرة وفضل في دينه، فاجتمعت إليه همدان، فقال: يا معشر همدان، إنكم لم تعبدوا محمدا، إنما عبدتم ربّ محمد، وهو الحي الّذي لا يموت، غير أنكم أطعتم رسوله بطاعة اللّه. الإصابة في تمييز الصحابة، ١٩٢/٤.

(٣) تاج العروس من جواهر القاموس: محمد بن محمد المرتضى الزبيدي، مادة : (قول)، الكويت، ط٢، د.ت.

والقسم مدخل رقراق يملأ القلب باليقين في تحقق ما أُقسم عليه، والنفوس تطمئن إلى قبول ما أقسم لها به.

فلقد جعل هذا الصحابي الجليل العزاء في موت النبي ﷺ ربّ محمد الحي الباقي، فالله ـــ تعالى ـــ خير عزاء؛ ليربطوا على قلوبهم، ويثبتوا على دينه، فطابق بين محمد ﷺ الذي مات، وبين المولى الحي الذي لا يموت؛ لكي تستقيم للناس أمورهم، وتهدأ نفوسهم، ويغالبوا أهواءهم.

***

وذلك الشاعر اليماني عبد الحارث بنُ أَنَس بنِ الدَّيَّان[1]، يقسم على أن مظاهر الطبيعة قد شاركته في حزنه على وفاة النبي ﷺ، فيقول[2]: (من الطويل)

لَعَمْرِي لَئِنْ كَانَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ● عَلَيْهِ (سَلاَمُ) اللهِ- أَوْدَى بِهِ القَدَر

لَقَدْ كَسَفَتْ شَمْسُ النَّهَارِ ● وَبَكَّتْ عَلَيْهِ الأَرْضُ، وَانْكَسَفَ القَمَر[3]

فأضاف القسم إلى نفسه، فالمقسم به هو دون سواه، ثم تبع القسم بإن الشرطية، وهو غالبًا ما يلي أسلوب القسم، زيادة في التأكيد المسوق القسم لأجله، وأكد القسم بالشرط وزمان الفعل الماضي، كما عرف النبي ﷺ بصفته واسمه، ليوحي بفقده لكليهما، فهو يفتقد وحي السماء، كما يفتقد بفقده شخص محمد ﷺ، وما يمثّله من قيم عالية ويمثل لهم القدوة والمثل، وجاء بالجملة الدعائية معترضة بين اسم كان وخبرها، وكأنه استثقل النطق بالخبر (أَوْدَى بِه)، ولما ذكر الخبر جاء عن طريق الكناية وليس تصريحًا، لاستثقال التصريح بلفظ الموت في مصيبته ﷺ،

---

(١) عَبْد الحارث بْن أنس بْن الديان: كَانَ ممن ثبَّت أهل نجران عَلَى الْإِسْلَام فِي الردة. أسد الغابة، ٣/٣١٦.

(٢) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ١٧٥.

(٣) وإن كان الأصل أن القمر يخسف ولا يكسف، ولعلها اختلاف روايات.

وإسناد التصرف إلى القَدَر يبرزه لنا في صورة إنسان لديه القدرة، على طريق الاستعارة المكنية .

ثم جاء بجواب الشرط مؤكدًا باللام وقد (لَقَدْ كُسِفت) شمس النهار لفقده، فهو يريد أن تشاركه كل مظاهر الطبيعة في أحزانه، فالخطب جلل، لا يكتفي فيه بحزن البشر فقط؛ بل لا بد من اتحاد كل عناصر الطبيعة، وكسوف الشمس يوحي بحالته النفسية السيئة، فهو رمز للأفول الذي أصاب الأمة بأسْرها، فوجود النبي ﷺ بينهم كان يمثل شمس حياتهم.

كما خلع على الأرض صفة الأحياء، وجعلها باكية منتحبة على وفاة النبي ﷺ، ولِمَ لا؟، وهي التي كانت مشرقة بنور ربها!، فقد كان يملؤها عدلًا ورحمة وهداية، فبكت لفقده كما يبكي الناس، فالحزن يومئذ لم يك خاصًّا بالناس وحدهم، وربما يقصد بكاءً حقيقيًّا.

كما عبر القمر عن حزنه بطريقته الخاصة (انْخسفَ القمر)، فغياب القمر عن أداء دوره في إنارة الأرض واحتجابه عن الناس حزنًا على فقْد السراج المنير، وكأنه كان مصدرًا لضيائه، فزاد الموقف حزنًا بمشاركة تلك المظاهر للشاعر في أحزانه على وفاة النبي ﷺ ، وكان للقسم دور بارز في تأكيد الروابط بين هذه الكائنات في الالتفاف حول مشاعر الحزن والأسى.

وعلى الرغم من أن النبي ﷺ قد أخبرنا يوم وفاة ابنه إبراهيم رضي الله عنه "أنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لاَ يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ"[1] على الرغم من ذلك، فإنّ فداحة الحدث وقسوته على المسلمين زعزعت أركان ذلك الكيان الراسخ المستقر في نفوسهم، وأسندت تلك المشاعر والأحاسيس إلى أن هدأت ثائرتهم، وعاد إليهم رشدهم، واستقر الخبر المفزع، واسترجعت الأنفس والقلوب حمدًا لله ـــ تعالى ـــ والتسليم لقضائه.

***

(١) صحيح البخاري، أبواب الكسوف، باب: الصلاة في كسوف الشمس، ٢/٣٤.

المبحث الخامس

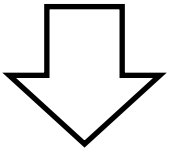

الاستهلال بأداة التنبيه

كثيرًا ما افتتح الصحابة مراثيهم للنبي ﷺ بأداة الاستفتاح، وتبرز الأداة وكأنها صيحة ألم، وصرخة أنين، يطلقها الصحابة لتغني عن كثير من الكلمات المعبرة في مثل هذا الموقف المفعم بأحاسيس متشابكة من الحزن، والألم، والحسرة، والحاجة الشديدة إلى إخراج تلك الزفرات، فكلمة (ألا) التي كثرت في المطالع ترسل الصوت في امتداد متسع يتناسب مع امتداد الحزن وطول النحيب؛ لما يمتاز به من مقطع صوتي مفتوح، فضلًا عما لها من طابع نفسي حاد يكشف عن انفعاله بمعانيه، وقوة حسه بها.

ولعل شعراء المراثي قصدوا من افتتاح مراثيهم بحروف التنبيه إيقاظ مخاطبيهم؛ بل إيقاظ أنفسهم إلى ضرورة الإذعان إلى صدق ذلك الخبر المفجع الذي ألمَّ بهم، فلا شك أنهم كانوا لا يُسلّمون بموت النبي ﷺ في بداية الأمر، ويصعب على عقولهم التسليم بتلك الحقيقة، فكانت أداة التنبيه كالمطرقة التي تقرع قلوبهم؛ لإفاقتهم من ذهولهم، وخروجهم من هوة الحزن والهلع.

فهذا ابنُ ذِي المِشْعِار[1] يفتتح مرثيته بحرف التنبيه على ما أصاب الأمة الإسلامية بفقد النبي ﷺ من ارتداد بعض ضعاف النفوس، فقال[2]: (من المتقارب)

أَلاَ كُلُّ أَمْرٍ وَإِنْ جَلّتْ ● مُصِيبَتُهُ بِالِغًا مَا بَلَغْ
خَفِيفٌ عَلَيَّ لَمَّا انْطَفَتْ ● مَعَاشِرُ كَانُوا مِنَ اهْلِ الوَتَغْ[3]

(١) يزيد بن ذي المشعار الأصغر من رُحيب بن مالك بن حمرة ذي المشعار الأكبر، وهو المشارك لذي مران الأصغر في أرض البون ومخلاف خارف. الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير: أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، ٥٢/١٠، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المناهل، بيروت، ط١، ١٤٠٧ه ـــــ ١٩٨٧م.

(٢) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ١٨٠.

(٣) الوتغ: الإثم والهلاك في الدين والدنيا، اللسان، مادة: (وتغ).

هذا صحابي يمني هاله خبر وفاة النبي ﷺ وأفزعه، إلا أن إقامة الدين، وتثبيت أركانه أخرجاه من أحزانه، وأخذ ينبه السامعين إلى أن هناك مصيبة كبيرة، عليهم الانتباه لها، والعمل على إخماد نارها، ألا وهي ارتداد بعض المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ ، فصوّر هذا الحدث الجلل بكونه أكبر المصائب، من خلال بعض الصيغ والتراكيب؛ فجاء بلفظ العموم والشمول (كل)، وعطف على عموم ذلك الأمر كونه أمرًا جليلًا في مصابه وهَوْله وإن جلت مصيبته.

وأضاف المصيبة إلى ضمير (الأمر) ، و لم يضفها إلى نفسه؛ فكأن الأمر جلل في نفسه ناهيك عن وقعه على المسلمين، ثم أفاض في إبراز فداحة هذا الأمر قائلًا: (بالِغًا مَا بَلَغ) وترك العِنان للخيال ليتوهم ألوانًا من المصائب تبلغ به وبمن حلت به أقصى درجات الرَّزايا والبلاء، وذلك ما أفاده التعبير بـــ (مَا) الموصولة بدلالتها على التفخيم والتهويل، ثم جاء البيت الثاني حاملًا جوابًا لذلك الشرط، فقال: (خَفِيفٌ عَلَي) فأوقع في نفوس السامعين شوقًا لمعرفة ما استهون الشاعر في سبيله كل المصائب واستخفها، فأبان لنا بأن المصاب الجلل الذي هان معه كل مصاب، هو ظهور تلك الفئة الآثمة التي ارتدت عن دين الله بعد وفاة النبي ﷺ، وقوله: (انْطَفَت) لي فيها وقفة، إما أن تكون (طَفَتْ) بمعنى علت فوق الأحداث وحدث خطأ في رواية البيت، أو تكون مركبة من (أن انْطَفَتْ)، فقد أخمدت كل المصائب الجليلة التي قد يلاقيها الشاعر، ولا شك أنه يشير إلى مصيبة فقد النبي ﷺ لما علت تلك المصيبة وبرزت على سطح أحزانه، واختياره لفظ (مَعَاشِر) يوحي باجتماعهم وموافقة بعضهم البعض في الارتداد عن الدين، وربما كانوا مخالطين للشاعر ومن أبناء جلدته.

وشاعرنا يشير إلى كونهم متأصلين في الإثم (كَانُوا)، فضلًا عن جعلهم أهلًا للشرور والآثام، فالأمر لم يكن مستحدثًا؛ بل إنهم متأصلون فيه.

وكما أدت التراكيب دورًا بارزًا في توضيح الحالة النفسية التي عليها الشاعر، كذا نجد بنية الألفاظ أكدت هذا المعنى من خلال تضعيف بعض الألفاظ

(جَلّت، لَمّا)، وما فيها من ثقل في النطق يتناسب مع ثقل إحساسه بتلك المصيبة، فضلًا عما بدأ به الشاعر حديثه بـــ (أَلاَ)، ذلك الاستهلال الذي يتناسب مع هذا الخطر الفادح الذي ألمَّ بالأمة، وفاق حده كل حد.

***

ومع استهلال آخر يعرب فيه الصحابي الجليل عن نهاية أمانيه بموت النبيﷺ، فيقول[1] أبو الهَيْثَم مالك بنُ التَّيِّهَان[2]: (من الطويل)

أَلاَ قَدْ أَرَى أَنّ المُنَى لَمْ تُخَلّدِ ● لأَنّ المَنَايَا لِلنُّفُوسِ بِمَرْصَدِ

أراد الشاعر من خلال مطلعه هذا تنبيه المسلمين إلى أن وفاة النبي ﷺ أمر حتمي، فجاء مطلعه من عقل حكيم أدرك حاجة المسلمين إلى صوت قوي يقرع أسماعهم، ويردهم إلى حتمية الأمر وواقعه، وإن لم يخاطبهم خطابًا مباشرًا، فهكذا الحكماء، يصوغون مواعظهم في قوالب محكمة، تتسلل إلى نفوس مخاطبيهم، فيستقر مفهومها لديهم، وتطيب نفوسهم إلى الإذعان والقبول، وبعد أن قرع أسماعهم بأداة التنبيه، أضاف من وسائل التأكيد ما تقوى به موعظته، من خلال حرف التحقيق (قَدْ)، فضلًا عن زمن الماضي ودلالته على التحقق (أَرَى) التي جاءت بمعنى اليقين، وزادت (أَنّ) في تأكيد المعنى، ولا يخفى مقصود الشاعر بعدم خلود المنى، فقد كانت كل أماني المسلمين تتمحور في وجود النبي ﷺ بينهم، فكان موته بمنزلة نهاية لكل أمانيهم، ويؤكد هذا المعنى الرواية الأخرى للبيت[3]:

أَلاَ قَدْ أَرَى أَنّ الفَتَى لَمْ يُخَلّدِ ● وَأَنّ المَنَايَا لِلرِجَالِ بِمَرْصَدِ

---

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٢٣٣.

(٢) هو مالك بن التيهان بن مالك بن عتيك الأنصاري، شهد بيعة العقبة، وكان أول من بايع، وشهد بدرًا والمشاهد كلها، وهو نقيب الأنصار وخطيبهم، الإصابة في تمييز الصحابة، ٤٤٩/٧.

(٣) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٢٧٤.

وقيل في سبب هذه المرثية: " إن اليهود والنصارى شمتوا بالمسلمين لما قُبض النبي ﷺ، وظهر النفاق في المدينة ممن كان يخفيه قبل ذلك، وهاج الناس واضطربوا، فأقبل مالك بن التيهان، فأنشأ يقول تلك القصيدة"[1]، فجاء الاستهلال منبهًا إلى أمر جلل في حياة المسلمين وجاء المصراع الثاني من البيت معللًا لما جاء به المصراع الأول من خلال حكمة جديدة، فقال: (وَأَنّ المَنَايَا لِلرِجَالِ بِمَرْصَدِ)؛ مصورًا الموت بوحش كاسر متخذًا من النفوس والأرواح غنيمة له، يترصدها ويترقب ضعفها، حتى إذا أتته الفرصة انقض عليها، وأجهز على الأماني والأحلام.

***

ويستمر الصحابة في استهلال مراثيهم بالتنبيه إلى ما يحيط بالإسلام من مخاطر بعد وفاة النبي ﷺ ، فيقول[2] عَدِي بن حاتم[3]: (من الطويل)

أَلاَ إِنّ هَذَا الأَمْرَ أَصْبَحَ أَهْلُهُ ● عَلَى مِثْلِ حَدِّ السَّيْفِ بَعْدَ مُحَمَّدِ

الأمور العظيمة والخطوب الجليلة، لا تحملها إلا عبارات قوية، وألفاظ قارعة للعقول والأسماع، فاستهل الطائي قصيدته بالتنبيه؛ مؤكدًا على الانتباه إلى خطر وبيل يحيط بالمسلمين، وكنى عن خطورته بكونه مثل حد السيف، فالاقتراب من حد السيف مهلك لا محالة، كذا ارتداد بعض المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ لا يقل خطورة عن حد السيف، وجعل المسلمين (عَلَى) وكأنهم مستعلون على حد السيف لا يفصلهم عنه شيء، حتى يلقوا حتفهم، والتعبير بلفظ (أَهْلُه) يشعر بحجم المصيبة،

---

(١) ينظر: المرجع السابق، ص ٢٧٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣٦.

(٣) عدي بْن حَاتِم بْن عَبْد اللَّهِ الطائي: مهاجري، يكنى أَبَا طريف، وينسبونه عدي بْن حَاتِم بْن عَبْد اللَّهِ بْن سَعْد بْن الحشرج بْن امرئ القيس بن عديّ.....قدم عدي على النَّبِيّ ﷺ فِي شعبان من سنة سبع. الاستيعاب في معرفة الأصحاب: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، ١٠٥٧/٣، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

فقد خالطوا هذا الأمر وامتزجوا به حتى صاروا أهلًا له، وتأخير خبر إن (بَعْدَ مُحَمَّد)؛ لأن في ذكر المقدم ما يبرز خطورة الأمر وشدته؛ مما يستدعي المسارعة إلى التنبيه له ومعالجته.

وإذا كان الاستهلال بالتنبيه جاء في الإشارة إلى ارتداد بعض المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ فهو أمر جلل أصاب المسلمين بذهول شديد؛ مما استدعى التنبيه إلى هذا الأمر، فتقول السيدة صفية[1]: (من الطويل)

أَلاَ يَا رَسُــولَ اللهِ كُنْــتَ ● وَكُنْتَ بِنَا بَرًّا وَلَمْ تَكُ جَافِيَا

فأعربت عمة رسول الله ﷺ عن فقدها للرجاء والبر والإحسان بفقد النبي ﷺ، وتوجهت بخطابها إلى النبي ﷺ ، وكأنها تستعذب مناجاته، وتستحضر وتستدعي وجوده، لتسلو بخطابه عن فقده، وبضميره عن حضوره، فالنفس تهدأ عند استشعار مصاحبة الأحباب، وإن غابت أجسادهم عن العيون استحضر القلب رؤياهم، وأجرى على الألسنة حديثهم، وكأن النداء وما به من امتداد صوتي وسيلة لاستعذابها إطالة الحديث بصحبة رسول الله ﷺ .

وفي فعل الكون (كُنْت) تثبيت وتأصيل لتحقق كل ما تمنوه بوجوده ﷺ بينهم، كما أضافت ضمير الجمع (رَجَاءَنَا، بِنَا) لاجتماعهم على فقدان تلك العطايا والهبات، وكان للطباق بين (بَرًّا، جَافِيَا) أثر بارز في الجمع بين حالين: حالهم في وجود النبي ﷺ، وحالهم بعد فقده.

وعلى الرغم من أن الاستهلال بحرف التنبيه أبان عن مصيبة فقد النبي ﷺ، إلا أن الهدف من وراء ذلك هو التنبيه إلى المصيبة التي اجتمعت المراثي على التنبيه

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٢٩٦.

عليها، وهي تزعزع العقيدة، وردة بعض ضعاف الإيمان، وهو ما أفصحت عنه في بيتها الثالث قائلة[1]:

لَعَمْرِي مَا أَبْكِي النَّبِيِّ لِفَقْدِهِ ● وَلَكِنْ لِهَرْجٍ كَانَ بَعْـدَكَ

فأمر الدين وحفظه وتدعيم أركانه أقوى لديهم من الحزن على فقد النبي ﷺ، حتى مع من تربطهم برسول الله ﷺ علاقة الدم والنسب، فهي عمته وأشد الناس حزنًا على فقده، إلا إنها فقدت بفقده الأمان والاستقرار في أمور الدين والدنيا، فحق لها أن تستهل قصيدتها بحرف التنبيه؛ لتوقظ الهمم إلى مجابهة هذا الخطر الداهم على الأمة.

***

ومع عمة أخرى من عمات النبي ﷺ أروى بنت عبد المطلب، تستهل مرثيتها بالتنبيه إلى مطالبة عينها بالبكاء فتقول[2]: (من الوافر)

أَلاَ يَا عَيْنُ وَيْحَكِ أَسْعِدِينِي و ● بِـــدَمْـــعِـــكِ مَـــا بَـــقِـــيـــتُ،وَطـــاوِعِـــيـــنِي

فنبهت عينها وكأنها قد تكاسلت، وأتعبها البكاء، فزجرتها (وَيْحَكِ) وأمرتها (أَسْعِدِينِي) وكأن العين كائن يعقل، وقد لمحت منها عزوفًا عن البكاء في موقف لا يقبل فيه العزوف ولا ينفع فيه التكاسل، فما كان منها إلا أن قرعت أسماعها، واستحثت مشاعرها، وأيقظت غفلتها بأشكال متعددة، أولها: حرف التنبيه، قاصدة منه حملها على الإصغاء إلى ما تقول، ثم نداؤها بـــ (يَا) التي للبعيد، فضلًا عن تنكيرها، وكأنها تستنكر منها هذا التراخي في البكاء، فعدتها نكرة مهملة لا قيمة لها.

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٢٩٦.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٣٧.

ثم جاء أسلوب الزجر والتعنيف (وَيْحَك)، وبعد أن اطمأنت إلى شدة انتباه العين جاءت بالأمر الذي مهدت له، فقالت: (أَسْعِدِينِي) تأمرها أن تساعدها وتشاركها وتسعفها في إظهار ما في قلبها من حرقة وألم، وما زال الخطاب متجهًا إلى العين مخاطبًا إياها خطاب العاقل، ثم أفصحت عن متعلق الأمر، فقالت: (بِدَمْعِك) وكأن العين تستبقي دمعها وتضن به وتختص به نفسها، وحددت الصحابية الجليلة أجلًا غير مسمى لهذا الأمر، وجعلت لامتداد الزمن ما يعبر عنه من التراكيب، فقالت: (مَا بَقِيت)، فالامتداد الصوتي لحرف المد (مَا، بَقِيت) يتناسب مع امتداد زمن البكاء، فأهمية البكاء بالنسبة لها استدعى ذلك المطلع القوي الذي يقرع المتكاسل وينبه الغافل، ويوقظ المقصر في أمر يستدعى القلق، والزعر والهلع.

وتستمر الصحابيات في الاستهلال بتنبيه العين إلى البكاء بلا ملل، فتقول هند بنت أثاثة[1]: (من الوافر)

أَلاَ يَا عَيْنُ بَكِّي لاَ تَمَلِّي ● فَقَدْ بَكَرَ النَّعِيُّ بِمَنْ هَوِيتُ

فبنت مطلعها على ما بنت عليه السيدة أروى، وإن كانت لغة السيدة أروى أقوى وأشد في تعنيف عينها، ولغة الطلب أشد إلحاحًا من هند، فقالت هند : (بَكِّي لاَ تَمَلِّي)، فالطلب هنا يتسرب إليه الضعف والوهن، فعاطفة الحزن لدى السيدة أروى تبدو أقوى وأشد، فهي عمته، ورابطة الدم بينهم تقوى هذه العاطفة، وجاءت هند بِعِلَّة هذا الطلب؛ مبرزة زمن تلك العلة بقولها: (بَكَرَ النَّعِيُّ)، وتحديد الزمن لا يقصد لذاته، ولكنه تعبير عن مباغتة المسلمين بهذا الخبر الجلل، وربما أوحى لفظ (بَكَر) بقصر عُمر رسول الله ﷺ فيهم، فقد تمنت لو طال عمره وتأخر نعيه، كما أنها لم تصرح باسم رسول الله ﷺ ولا صفته، ولكنها كنَّت عنه بقولها: (بِمَنْ

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٣٢٨.

هَوِيت)، وتعبيرها عن النبي ﷺ باسم الموصول لكونه حقيقًا بما طلبت، فهو من تهواه وتستنشق نسائم حبّه، فحقيق بكِ يا عين ألا تملي بكاء مهوي ومعشوقي، وفعل الأمر (بَكِّي) يوحي بإطالة البكاء والمداومة عليه، والجمع بينه وبين ضده (لاَ تَمَلِّي) أكد معنى استدامة البكاء وكثرته.

***

وكعب بن مالك شاعر الرسول ﷺ الذي يستهل مرثيته بالتنبيه على نعي النبي ﷺ إلى العالمين، فيقول[1]: (من المتقارب)

أَلاَ انْعِ النَّبِيّ إِلَى العَالَمِينَا ● جَمِيعًا وَلاَ سِيِّمَا المُسْلِمِينَا

فيستهل مرثيته بحرف التنبيه على ضرورة نعي النبي ﷺ، والأمر هنا مقصود به نفسه، فيتجه بالخطاب إلى نفسه يستحثها على النعي، وكأنه استشعر من نفسه أو من مقدرته الشعرية قصورًا في نعي النبي ﷺ ، فعزم على شد عزمها وإثارة حفيظتها، إلى أحقية هذا الحدث الجلل بأن ينشر نعيه، ولعله قصد من نعيه بكاءه بكاءً حارًّا، وتبليغ هذا النعي إلى كل البشر يجعل نهاية النعي لا تتوقف عند فئة دون غيرها، وأكد عموم وشمول ذلك الأمر من خلال توكيده (جَمِيعًا)، ثم خصص ذلك العام بقوله: (وَلاَ سِيِّمَا المُسْلِمِينَا) .

فموت النبي ﷺ أمر فاجع لجميع البشر، حقيق منهم أن يحزنوا لفقده، فالحدث جلل، والفقد ينال غير المسلمين، كما ينالهم، فعموم الكارثة على بني البشر أمر يستدعى الانتباه، فجاء المطلع مناسبًا للغرض المسوق من أجله.

***

(١) المرجع السابق، ص ١٢٤.

وهذا هو علي بن أبي طالب يصور لنا حالته وقت بلوغه خبر وفاة النبيﷺ، فيستهل كلامه قائلًا[1]: (من الطويل)

أَلاَ[2] طَرَقَ النَّاعِي بِلَيْلٍ فَرَاعَنِي وَأَرَّقَنِي لَمَّا اسْتَهَلَّ مُنَادِيَا
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا رَأَيْتُ الَّذِي أَتَى: أَغَيْرَ رَسُولِ اللهِ أَصْبَحْتَ نَاعِيَا

وأداة الاستفتاح (أَلاَ) يستهل بها الكلام لجذب الانتباه، أفادت توكيد الجملة بعدها، فهي تؤكد سوء مخبر ذلك الطارق، وكان في تعبيره بالفعل (طَرَق) دون جاء مثلًا؛ لأن أحد معاني كلمة طَرْق: الضرب، أو ضرب عليه بالمِطْرقة[3]، فصور فعل ذلك النائي بذلك الخبر المشئوم بفعل من يضرب عليه بمطرقة، وجعل زمن هذا الطرق ليلًا، وتحديد الزمن يوحي بثقل هذا الزمن وطوله، فالليل عادة زمن الهموم والأوجاع، وتكثر فيه الكوارث والنوازل، وجاءت الفاء لتصور لنا سرعة تأثره بهذا الطارق الذي أصاب سويداء قلبه، وأدخل فيه الرَّوْع والهلع والفزع، و لم يتوقف الأمر عند هذا الشعور المدوي ولكنه عطف عليه شعورًا آخر حرمه القدرة على النوم، وكيف ينام مرتاع بخبر محزن وفقد عزيز؟!، فما بالنا لو كان هذا الفقيد هو النبي ﷺ ؟!، وجعل زمن الروع والأرق مقرونًا بنداء هذا الناعي، وكان مترقبًا لخبره هذا، خائفًا منه، متوقعًا له؛ لأن النبي ﷺ كان يعاني من سكرات الموت، فلما سمع سيدنا علي استهلال الناعي ونداءه، تملكه الرعب وجفاه النوم، فهو قلق متوجس خيفة من ذلك الخبر.

---

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ١٢٦.

(٢) ألا: قد تتكون من همزة الاستفهام و (لا) النافية، وتدخل في هذه الحالة على الجملة الفعلية لا الاسمية، ومعناها (ألا) العرض والتحضيض. دراسات لأسلوب القرآن الكريم، د/ محمد عبد الخالق عضيمة، ص٢١٨، تحقيق: الأستاذ/ محمود محمد شاكر، دار الحديث القاهرة، د.ت.

(٣) القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادى، مادة: (طرق)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ــ لبنان، ط٨، ١٤٢٦ هـ ــ ٢٠٠٥ م.

ثم توهم حوارًا دار بينه وبين ذلك الناعي، وما هو إلا حديث متوهم أراد أن ينفث به عما بداخله من أمنيات لا سبيل إلى تحقيقها، وجعل مفعول الرؤية اسم موصول (الّذِي أَتَى)؛ صونًا للسانه عن أن ينطق بحقيقة الخبر، فكنى عنه بهذه الجملة، وفي التعبير عنه بقوله: (لَمَّا رَأَيْت) ما يفيد تحقق وقوع الخبر، وجاء بأسلوب استفهام؛ قاصدًا به تمني أن يكون المنعي غير الرسول ﷺ ، وذكر النبي ﷺ بوصفه رسول الله ﷺ ليعظم إحساسه بفقده؛ لما لهذا الاسم وما أضيف له من تعظيم وتشريف يَعِزُّ على من افتقدوه، لذا تسابقت أمانيهم في تكذيب هذا الخبر.

وفي التعبير بـــــ (أَصْبَحْت) ما يفهم منه؛ دلالة الصباح على ذهاب ليل هذا الخبر بنعي غير النبي ﷺ، فيصبح الليل صباحًا، ويزول هذا الرَّوْع.

وقد حمل هذا الاستهلال الباكي صورًا بلاغية عديدة، منها: رد العجز على الصدر (النّاعِي، نَاعِيَا)، كما أن بينهما جناس اشتقاق أبرز نغمة الحزن الكامنة في صدر الشاعر، فضلًا عن مراعاة النظير بين (النّاعِي، رَاعَنِي، أَرِّقَنِي)، فكلها ألفاظ تَقْطُر حزنًا وألمًا، وتوحي بكارثة مدوية.

والطباق بين قوله: (بِلَيْلٍ، أَصْبَحْتَ)، وما يوحي به الليل من وقع الخبر على الشاعر، ودلالة الصبح على تلك الأمنية المتوهمة من أن يكون المنعي غير النبي ﷺ، فاستهلال المراثي بحرف التنبيه كشف عن أهمية تأكيد ما حمله هذا الاستهلال من معانٍ جليلة تستدعي الانتباه إليها بكل قوة.

فمنها: ما استهل به الحديث عن ردة بعض ضعاف النفوس، وأكد على ضرورة التصدي لهم، والعمل على تثبيتهم.

ومنها: ما استهل به الحديث عن حث العين على البكاء في حالة فتورها عنه، فالخطب جلل، والحادثة مدوية، وللعين دور في التعبير عن هذا الخطب، ولزامًا عليها أن تؤدي هذا الدور، كما هو متوقع منها.

***

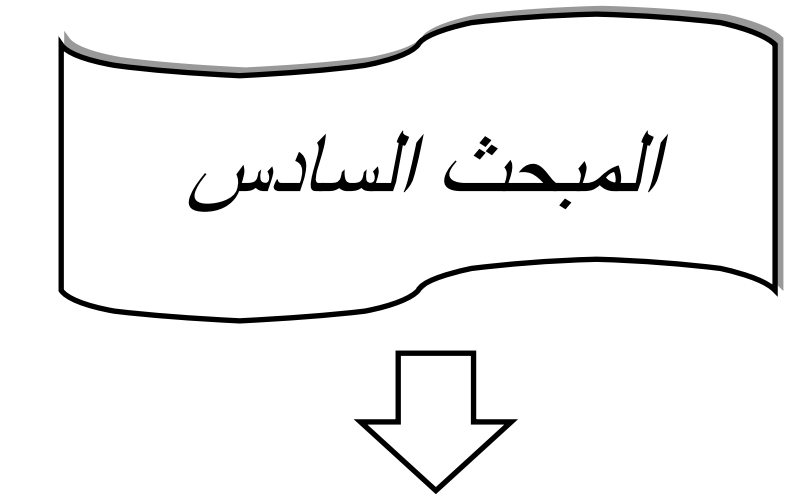

الاستهلال بالاستفهام

الاستهلال بالاستفهام له خصوصية عن الخبر؛ فهو ينبه الأذهان، ويثير المشاعر، ويدعو إلى التفكر، ويجعل المتلقي يبحث عن الإجابة بنفسه، كما أن له أثرًا جليلًا في تحريك قُوَى النفس، ومنازع الإيقاظ، ومكامن الأحاسيس والمشاعر، واستهلال المراثي به يبدو بمنزلة الصدمة الفكرية التي تحرك وعي المتلقي، فيتهيأ نفسيًّا وذهنيًّا لمعرفة أبعاد ذلك المطلع، ويجهد ذهنه ويَكُدّ فكره ليلتقط المعاني المبثوثة في ثنايا أسلوب الاستفهام، وهناك فرق ليس باليسير بين معنى يساق في أسلوب الاستفهام وما يحمله من تشويق وإثارة ذهن، ومعنى آخر جاء في أسلوب مجرد تقف النفس عند تمامه، لا تجد لها مجالًا للإضافة إليه أو السباحة في أغواره، بل تظل مقيدة محدودة.

فأبان الاستفهام عن استبعاد الصحابة لواقع حياتهم الجديدة بعد فقد النبي ﷺ ، فهم يستنكرون، ويستبعدون أن تعود الحياة إلى ما كانت عليه قبل فراقهم للنبي ﷺ .

وهذا علي بن أبي طالب يستبعد أن يكون هناك من يستحق الحزن والأسى بعد فقد النبي ﷺ ، فيستهل مرثيته قائلًا[1]: (من الطويل)

أَمِنْ بَعْدِ تَكْفِينِ النَّبِيِّ ودَفْنِـهِ ● بَأَثْوَابِهِ آسَـى عَلَـى مَيِّـتٍ ثَـوَى

يستهل مرثيته ذاهلًا لما حدث، واجمًا عن التفكير، مصدرًا مطلعها بالاستفهام، وكأنه سبح بفكره فيما بعد تكفين النبي ﷺ ودفنه ، وغاص في أعماق أحزانه وعواطفه، فلم يلق ما يمكن أن يصف به ذلك الزمن البعدي، إلا أنه لن يأسى على أي ميت، وكأنه اختزل أحداث الزمن الآتي بعد تكفينه ﷺ ، ودفنه في الموت فقط، فإذا كانت حوادث الموت لن تبعث على أساه، فما دونها لن يحرك له ساكنًا، وتعبيره بالظرف (بَعْد) ما هو إلا رمز لحد فاصل بين زمنين: أحدهما ما أشار له بتكفين النبي ﷺ ودفنه كناية عن موت النبي ﷺ ، وقوله: (بَأَثْوَابِه) وإن كان

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ١١٦.

فيها إيغال؛ إلا أنه أفاد زيادة في معنى الحزن والفقد والزمن الثاني الذي أفاده التعبير بالظرف، هو زمن ما بعد وفاة النبي ﷺ ، وكأن كل ما بعد وفاته ﷺ سيكون مآسِيَ وأحزانًا، وإن رمز لها بـــ (مَيِّت)، فالموت رمز لكل فَقْد يستدعى أسى وحزنًا يستهونه ويراه غير حقيق بالأسى.

وفي كنايته عن وفاة النبي ﷺ بعد تكفين النبي ﷺ (ودَفْنِهِ بَأَثْوَابه) ذكر تفاصيل ذلك اليوم، وكأنه يريد أن يمد أمد الحزن مع كل جزء من أجزاء تلك الصورة، فكل لقطة في المشهد تبعث على الأسى، وتدعو إلى الحزن مما لا يقارن بغيره من أحداث، فكان للاستفهام دور في إبراز خلجات هذا الصحابي الجليل؛ حيث ترك الخيال يسبح في تفاصيل المشهد وجزئياته المؤلمة.

***

ومع صحابية جليلة من آل بيت رسول الله ﷺ استهلت رثاءها بالاستفهام، وهي السيدة صفية ـــــ رضي الله عنها ـــــ قالت[1]: (من الخفيف)

مَا لِعَيْنَيِّ لاَ تَجُودَانِ رِيِّـــا ● إِذْ رُزِينَـــا خَيْـــرَ البَرِيَّـــةِ حَيِّـــا

فلقد غادر موت النبي ﷺ في جَنان السيدة صفية جرحًا غائرًا أعياها وأسهر ليلها، ومع ذلك ترى أن عينها لا تجود بالدمع، كما يجب فتسأل مستنكرة ومتعجبة من حال عينها، فدخلت ما الاستفهامية على الجار والمجرور، فهي تسأل عن السبب في عدم جود عينها، وكأن معنى الاستفهام (مَا لِعَيْنَيِّ) والمستفهم عنه ليس جود العينان وحسب ولكنها تطلب أن تجود (رِيِّـــا)، وهي تخاطب كلتا عينَيْها، استدرارًا للدمع، واستكثارًا له؛ حتى يصل إلى الري، هلا سأل سائل عن متعلق (ريًّا)؟، ربما كان رِيًّا لنار قلبها المستعرة من الحرقة والألم لفراق النبي ﷺ، أو ريًّا للشوق والحنين لرؤيته، أو ريًّا لحياة الأمة بعدما أصابها القحط لتوقف وحي السماء،

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٢٩٨.

ثم جاء المصراع الثاني للبيت مبدوءاً بـــ (إذ) التي تحتمل أن تكون ظرفية، أو سببية، وفي الالتفات من ضمير التكلم (عَيْنَيّ) المفرد إلى الجمع (رُزِينَا) ما يشير إلى أن خطاب عينها واستنكارها لعدم الجود بالبكاء أمر خاص بها، فهي أحق الناس بذلك، فلن يشاركها أحد في مقدار حزنها وكيفية تعبيرها عن هذا الحزن، أما الرزية بموت النبي ﷺ ، فهي رزية أصابت المسلمين كافة، فناسب أن تأتي بضمير الجمع، وكنَّت عن النبي ﷺ بوصف من صفاته (خَيْرَ البَرِيَّة) ، فهو حقيق بالدموع الغزيرة من أجل هذا الوصف، وإن ختمت الوصف بإيغال غيرِ حسنٍ (حَيا)، فهو (خَيْرَ البَرِيَّة) حيًّا وميتًا، صلوات ربي وسلامه عليه، ونلمح تكرار حرف الراء (رِيِّـــا، رُزِينَا، خَيْر، البَرِيَّة)؛ لما يمتاز به "حرف الراء من نغم موسيقي صامت يتوسط بين الشدة والرخاوة، وهو صوت مكرر يجري فيه الصوت؛ لانحرافه إلى اللام واهتزاز اللسان أثناء النطق بها"[1].

وكأن التذبذب الصوتي الناجم عن تكرار هذا الحرف ملائم لذلك الشعور المتذبذب للسيدة صفية، فقلبها يضرم بنار الفراق المشتعلة، وأفكارها شاردة، وعاطفتها جياشة، كل هذه المعاني تواسقت، وتضامنت مع حرف الراء وما له من صفات.

وإن كنت ألمح في هذا المطلع ضعفًا عما سبق من مطالع السيدة صفية، كما أن جذوة الحزن فيها لم تكن بنفس الاشتعال الذي لمسناه فيما سبقها، ولعل قول المشككين في نسبتها إلى السيدة صفية يكون صادقًا"[2]، أو ربما هي فترات الوهن والضعف التي تتوارد على المكلومين، فتخور قواهم البيانية كخور أجسادهم وجمود عيونهم.

***

(١) حرف الراء دراسة صوتية مقارنة. د/ عمر الدقداق، ملتقى أهل التفسير ، ١٤٣١هـــ- ٢٠٠٩م.
(٢) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص٣٢٠.

وإذا كانت عين أبي بكر شبهت بأن جفونها فيها كلام، فإن عين حسان قد صورها بمن كحلت مآقيها بكحل من أصابه رمد، فقال[1]: (من الكامل)

مَـــا بَـــالُ عَيْنِـــكِ لاَ تَنَـــامُ كَأَنَّمَـــا ● كُحِلَتْ مَآقِيهَـــا بِكُحْـــلِ

جَزَعًـــا عَلَـــى المَهْـــدِيّ أَصْـــبَحَ ثَاوِيًـــا ● يَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الحَصَـــى

"وكيف ينام المحبون على فقد ذلك الحبيب الذي كانوا يفدونه بمهجهم وأرواحهم، والذي كان يحل منهم محل القلب، وكيف يَقِرُّ لهم قرار وقد أقفرت المدينة، و لم يعد فيها أنيس"[2].

فاستهل حسان رثاءه للنبي ﷺ بذلك الاستفهام الذي يحرك لواعج النفس، فالكلمات والعبارات أقل بكثير من المعاني التي تختبئ في الصدور، و لم تستوعبها اللغة، فنستطيع أن نسمع من خلال أداة الاستفهام (مَا بَالُ عَيْنِك) صوت الأنين والحزن النابع في أعماق نفسه، ومن خلال هذا الاستفهام يحاول أن يحرك كوامن الحزن، ويستثير موجبات الدمع، فهو استفهام يحمل بين طياته التعجب والإنكار والتحسر، وفي استعمال ضمير الخطاب مجرِّدًا من نفسه شخصًا آخر ليتسنى له أن يتجه إليه بسؤاله مشاركًا إياه مشاعر الحزن والأسى، ثم ما يلبث أن ينتقل إلى التشبيه ليصور لنا حال عينه التي جفاها النوم بتلك العيون التي قرحت مآقيها، بذلك الكحل الذي يُداوَى به مرض العيون، وفي البيت الثاني جاء بالعلة والسبب والجواب عن سؤاله السابق (جَزَعًا عَلَى المَهْدِيّ)، ونراه عبر هنا باسم المفعول (المَهْدِيّ)، وإن كان تعبيره باسم الفاعل (الهَادِي) أوثق صلة برثائه، وإظهارًا لشدة فقده لمن كان هاديًا للمسلمين، فهو هادٍ مهديٌّ، صلوات ربي وسلامه عليه، ولكن الجملة التالية (أَصْبَحَ ثَاوِيًا) ربما كانت داعيًا لاختياره صيغة المفعول، وكأنه يستبعد من كان

(١) المرجع السابق، ص ٧٢.

(٢) شعراء الرسول في ضوء الواقع والقريض، ص٢٤٦، سعيد الأعظمي الندوي، مكتبة الصفاء أبو ظبي، ط١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

مهدِّيًا، من المولى ـــــ عز وجل ـــــ أن يصبح ثاويًا هكذا، والتعبير بزمن المضي (أَصْبَحَ) يفهم منه تحقق وقوع تسليمه به، ثم ما تلبث الأحزان أن ترتفع وتعلو على سطح مشاعره، فيخرجها من خلال صرخة نداء مدوية (يَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الحَصَى)، وفي وصفه للنبي ﷺ بهذه الصفة (خَيْر مَنْ وَطِئَ الحَصَى) ربما جاءت في مقابلة لقوله: (أَصْبَحَ ثَاوِيًا) وهي مقابلة معنوية، قابل فيها الشاعر بين ما أسفرت عنه النازلة التي أحلت بالمسلمين؛ حيث أصبح النبي ﷺ ثاويًا لا يتحرك، وبين حالة الذي يفتقدونه ويتحسرون عليه، وهو بين أظهرهم ثاويًا تحت الحصى، والجملة كناية عن حياة النبي ﷺ ووجوده بينهم، ثم جاء النهى قاصدًا منه التمني الذي لا سبيل لتحقيقه، ولكنها أمنيات نفس بائسة، والأمر بعد النداء له وقع خاص؛ وكأن الشاعر أراد بندائه أن يستحضر وجود النبي ﷺ فتستريح بذلك نفسه ، ثم يخاطبه بما يرجوه ويأمله، فيقول له: (لاَ تَبْعَد)، وهو يقصد بذلك البعد الحسيّ، وإلا فهو مدرك تمام الإدراك أن النبي ﷺ لم ولن يبعد عن المسلمين بتعاليمه وسنته وهديه، فهي باقية ما بقيت الخليقة، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

***

ونرى أثر المصيبة على الصديق قد سلب منه القدرة على النوم، فعبر عن ذلك قائلًا[1]: (من الوافر)

أَجِـــدَّكَ مَـــا لِعَيْنِـــكَ لاَ تَنَـــامُ ● كَأَنَّ جُفُونَهَـــا فِيهَـــا كِـــلاَمُ

بِوَقْعِ مُصِـــيبَةٍ عَظُمَـــتْ وَجَلَّـــتْ ● فَدَمْعُ العَيْنِ أَهْوَنُهُ انْسِـــجَامُ[2]

لقد كانت لحظة موت النبي ﷺ من أصعب اللحظات على رفيق الدرب والصحابي الجليل الصديق الصدوق أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فيستهل رثاءه بهذا الأسلوب الإنشائي.

---

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٣٨.

(٢) انسجام: أي صببته صبا. القاموس المحيط ، مادة: (سجم).

ويستفهم مستنكرًا عن حقيقة الأمر الذي جعل عينه لا تنام، " والمعنى:أتفعله جِدًا منك؟، على سبيل الإنكار لهذا الفعل، ويقع غالبًا بعد (أَجِدِّك) استفهام أو نفي"(١).

فهو يسأل عن علة عدم مقدرته على النوم، وهذا من قبيل تجاهل العارف، وكأنه يتمنى أن لو كان هذا الأمر ليس جدًّا، وكأن عقله ينكر أن يسلم بحقيقة الخبر، على الرغم من أن الصديق أول من خرج إلى الناس وأعلن وفاة النبي ﷺ ليقر الأمر بينهم، بعد ما رأى من ارتباك بين جموع المسلمين، وقال قولته الشهيرة: (مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ مَاتَ مَن كانَ مِنكُم يَعْبُدُ اللّهَ فإنّ اللّهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ) .

فلمّا خلا إلى نفسه جرَّد منها شخصًا آخر، وأخذ يجري معه حوارًا هو من حديث النفس، مستبعدًا ما حدث، ولكن ما بال عينه قد جفاها النوم؟!، فما أشبه جفوها بمن أصابته الجروح الغائرة!، فمعنى الكِلام "بكسر الكاف" الجروح، وهناك تشابه في الدلالة بين هذه الكلمة وما اشتقت منه (الكلام) بالفتح؛ وذلك لما بينهما من تشابه في الأثر، فكما أن أثر الكلام قوي إن كان خيرًا أو شرًّا، كذا أثر الجروح الغائرة ليس له دواء قاطع.

ثم لم يلبث أن صرح أن هذا الأمر حقيقي، وأن العلة فيما أصاب عينه هو تلك المصيبة، وكان لتنكير لفظ (مُصِيبَة) أثر بالغ في بيان عظمتها وشدة وقعها على نفسه، ثم أكد باللفظ ما أكده التنكير، فقال: (عَظُمَتْ)، ثم أكد مرة أخرى بقوله: (جَلّتْ) فاجتمع له في الإبانة عن حجم هذه المصيبة من دلالة معنوية في (التنكير)، ودلالة لفظية (عَظُمَتْ وَجَلّتْ) وإن كان وصف المصيبة بالعظمة أي في حجمها، وجليلة لا يدانيها غيرها في أثرها، فوصف المصيبة بوصف حسي وآخر معنوي، ثم

---

(١) ينظر: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، للبغدادي، ١٨٩/١، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي ــ القاهرة، ط٤، ١٤١٨ه ــ ١٩٩٧م.

عقب مسرعًا إلى أن هذا الكلام هين يسير على هذه الفاجعة، فأهون الدموع التي يمكن أن تسكب على فراق النبي ﷺ هي الدموع التي تصب صبًا، وكأن الفاء هذه جاءت نتيجة لما قبلها.

وفي هذا تعليل لما أصاب عينه من (الكِلام)، فتلك الدموع المنهمرة من عينه هي ما أصابت عينه بهذه الجروح، وإن كانت أهون بكثير مما تستدعيه الكارثة، فوقع الاستفهام موقعه في استنكار أمر تلك المصيبة التي قرحت عينه، وأصابتها بالجروح الغائرة.

المبحث السابع

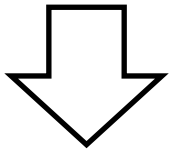

الاستهلال

بذكر بيان حالة الأمة بعد النبي ﷺ

وهناك من الصحابة من تجاوز أحزانه، وخرج عن الحدود الذاتية للألم والحزن، ونظر إلى المشهد نظرة كلية، فراعه حال الأمة بعد وفاة النبي ﷺ، فأخذ كل منهم يستهل مرثيته يدق نواقيس الخطر المحدق بالمسلمين، ومنهم من أشار إلى طوائف بعينها كان وجود النبي ﷺ أساسًا في وجودهم، يستمدون حياتهم من حياته، ويستضيئون بنوره، ويستمدون قوتهم من ركنه ﷺ.

فهذا حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ يصور لنا حال المساكين بعد وفاة النبي ﷺ وقد كان كافلهم وعائلهم ـــ صلوات ربي وسلامه عليه ـــ، قائلًا[1]: (من البسيط)

نَبِّ المَسَاكِينَ أَنَّ الخـــيرَ فَـــارَقَهُمْ ● مَعَ الرِّسول تَوَلّى عَـــنْهُمُ سَـــحَرَا

لقد ظهرت معاني الحزن والصدمة المدوية التي ألمت بشاعر الإسلام في مرثياته لرسول الله ﷺ، إلا أن رثاءه هنا أخذ منعطفًا مغايرًا أراد به أن يوسع دائرة أحزانه، ويشارك الحزن والفقد والاحتياج مع غيره من المسلمين.

ومن خلال فعل الأمر محذوف الفاعل، فالخطاب لكل من يتأتى منه الخطاب ممن يستمع إليه، والتعبير بالفعل (نَبأ) فيه إشعار من أول الأمر إلى خطورة ما سيلقى إلى المساكين من أمر، وذلك ما أفاده تسهيل الفعل (نَبِّ)، ولكن ما مفهوم المساكين الموجه إليهم ذلك النبأ؟، إذا كان المقصود بالمسكين هو: صاحب الحاجة، فالخطاب يشمل كل الأمة الإسلامية على اختلاف حاجاتهم، فكل فرد من أفراد الأمة مسكين لفقده ﷺ ، فيكون الشاعر ومن عداه معنيًّا بهذا الخطاب، أما إذا كان مقصودًا به من كانت قدرته المادية دون حاجته، فهو يقصد بهم فئة بعينها، أولئك الذين كان يختصهم النبي ﷺ بعطائه، وكانت لهم أنصبة محددة في الغنائم والصدقات.

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٧٦.

ويسوق إليهم النبأ بجملة خبرية مؤكدة، ولا شك أنهم يدركون هذا المعنى، ولكن داعي التأكيد لدى المتكلم؛ فهو يؤكد خبره لنفسه قبل مخاطبه، وفي تعريفه (الخَيْر) ما يوحي بالعظمة والشمول؛ فكل صنوف الخير وأسبابه قد فقدت بموته ﷺ واستعار المفارقة للخير وكأنه كائن حي كان يتحرك بينهم، يغمرهم بفيض عطائه، ويسد عوزهم، فغادر ورحل برحيل رسول الله ﷺ ، وجمع مفارقة الخير مع مفارقة النبي ﷺ وبعد أن أنبأهم بمفارقة الخبر أكد المعنى بصياغة أخرى، فقال: (تَوَلّى عَنْهُمُ سَحَرًا)، وفي لفظ التولي ما يوحي بالإعراض والمجافاة، وكأن الخير قد أعرض عن المساكين؛ لعدم وجود النبي ﷺ بينهم، فصور الخير بكائن حيّ يتلمس خطاه، ويدرك مكانه، فلما خلت الحياة من وجوده، فارق وأعرض، ولم يجد له مكانًا ملائمًا لوجوده فيه.

والإشارة إلى زمن تولي الخير (سَحَرًا) ما هو إلا رمز للحزن والكآبة البادية في المشهد، فزمن الأفول والغروب والتولي مرتبط في أذهان الناس بالليل عادة، وإن لم يكن زمنًا حقيقيًّا لتلك الأحداث.

فمن خلال هذا الاستهلال الموجع، الذي صور فيه حسان بن ثابت رضي الله عنه طائفة من المسلمين، ممن كان اعتمادهم على النبي ﷺ في تصريف شئونهم وإعالتهم تلك الطائفة التي تبدو مترقبة ما اعتادت عليه، فيأتيها النبأ المشئوم بأن الأمور تبدلت وتحول شمس نهارها إلى ظلمة حالكة، وكأن الشاعر يستدعي لنا مشهد هؤلاء المساكين وقد وصل إليهم هذا النبأ المفجع، لنعيش أحساسهم وقد مادت الأرض من تحتهم بفقدهم العائل والسند والمجير، فكان مطلعًا قويًا بداية من دلالة فعل الأمر وما فيه من قوة في إيقاظ المشاعر وتنبيه الأحاسيس، فعبر الشاعر عن ألم الحزن، من خلال إثارته لقضية مجتمعية يشاركه فيها كثير من المسلمين.

***

ومن الصحابة من استهل رثاءه ببيان الفتق الذي أصاب المسلمين، وكأنه تنبأ بالفرقة التي أحلت بديار الإسلام، فقال[1] ابن أبي عزة:[2] (من الكامل)

ذَهَـــبَ النَّبِـــيُّ فَرَتْقُنَـــا مَفْتُـــوقُ ● وَلَقَدْ يَكُـــونُ وَفَتْقُنَـــا مَرْتُـــوقُ

ذَهَبَ الَّـــذِي كُنَّـــا نُـــدَالُ بِرِيحِـــهِ ● وَفَقِيرُنَـــا بِرِحَابِـــهِ مَـــرْزُوقُ

افتتح الشاعر مرثيته بجملة خبرية من الزمن الماضي؛ قاصدًا تحقق وقوع ذلك الخبر، وإن اصطفى التعبير بلفظ (ذَهَبَ) وكأن لسانه يتحاشى ذكر لفظ (مَاتَ) في حق رسول الله ﷺ ، وربما استعار هذا الفعل من مقالة عمر الفاروق، لما ثار في وجه من قال بموت النبي ﷺ ، وقال: إنه ذهب للقاء ربه كما ذهب موسى، وإسناد الذهاب إلى وصفه ﷺ (النَّبِي) لا لاسمه؛ لافتقاد النبي الهادي النذير، الذي اجتمعت الأمة على رسالته، فهذا الفقد الذي يعاني منه الشاعر اصطفى له هذا الوصف دون سواه.

وقدم الشاعر صورتين متقابلتين لحال المسلمين بعد الوفاة وقبلها، فصوَّر حال المسلمين وما أصابهم من فرقة وشتات، بحال الرتق المتسع الذي لا يُرجَى الْتِئَامه، كما صوَّر حالهم قبل الوفاة بالرتق الملتئم الأجزاء، المحكم النسج، وكان تعبيره موجزًا وافيًا (فَرَتْقُنَا مَفْتُوق) بهذه الجملة القصيرة، صور حال المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ، وإن كانت هذه الصورة قد أوحى بها خيال الشاعر لحالته النفسية، ولما أصاب المسلمين في أول الأمر من تفرق واضطراب، إلا أن الأمر سرعان ما استقر على يد الخلفاء الراشدين، فنجد في هذا الوصف أصدق تعبير عن حالنا اليوم، فهو وصف جامع للفرقة في شتى مناحي الحياة المادية والمعنوية.

---

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٢٤٠.

(٢) م أقف على ترجمة محققة لقائل هذه الأبيات، ولا يوجد جزم بنسبة هذه المرثية لنفر بعينه يكنى بـــأبي عزة، ينظر: المراثي النبوية ص ٢٤٨، ٢٤٩.

وإظهارًا لسرعة تأثر المسلمين بوفاة النبي ﷺ جاءت الفاء بدلالتها على التعقيب (فَرَتْقُنَا)، وهذا التركيب مقتبس من قوله ــ تعالى ــ: "أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا "[1].

فشبه جمع الأمة الإسلامية والتفافها على كلمة سواء بوجود النبي ﷺ بالرتق، وهو الالتصاق ووصل بعضه بعضًا، وكما صور حالة الفرقة التي تلت وفاتهﷺ بالفتق، وهو الفرقة والانقسام إلى أجزاء، وفي البيت الثاني أعاد المسند (ذَهَبَ)، وكأنه يكرر ما يثير أحزانه ويهيج مشاعره، ولعله قصد من وراء التكرار تأكيد الخبر لنفسه ولمخاطبه.

وأبان في هذا البيت عن بعض صور الفرقة التي أحلت بالمسلمين بفقده ﷺ فقال: (ذَهَبَ الّذِي كُنّا نُدَالُ بِرِيحِه) كناية عن هدايته ﷺ لهم واجتماعهم بين يديه، وعرف المسند إليه باسم الموصول؛ لأن جملة الصلة فيها تعظيم لشأن الخبر، فرائحة النبي ﷺ العطرة كانت دليلهم ومرشدهم الذي يهتدون إليه ويلتفون حوله ويجتمعون على كلمته، فمن كانت له حاجة إلى الهداية والرشاد وجدها لدى النبيﷺ، ومن كانت له حاجة مادية وجدها لديه ﷺ (وَفَقِيرُنَا بِرِحَابِهِ مَرْزُوق)، وفي إضافة الفقير إلى نون الجمع ما يوحي باجتماعهم ووحدتهم، وتغلب حاجة الجماعة على الفرد في تلك الحقبة التي يتحسر عليها الشاعر.

وهنا تبرز قيمة تلك النفوس القوية، والعقول النابهة التي تُعنى بصالح الأمة، وتهتم بشئونها كما ينبغي للمسلم الحق.

فاستهل قصيدته راثيًا حال الأمة برثائه للنبي ﷺ، متمثلًا بالمقابلة بين العبارتين، ولا يخفى على السامع تلك الدلالة الصوتية التي يمثلها تكرار القاف في مطلع تلك المرثية (فَرَتْقُنَا، مَفْتُوقُ، لَقَدْ، فَتْقُنَا، مَرْتُوقُ، مَرْزُوقُ) "وبما تحمله من

(١) سورة الأنبياء، من آية: (٣٠).

صفات الانفجار، وخروجها من أقصى الفم مع حبس تام للهواء" [1] فدلالة صوت القاف وما به من قوة تناسب القوة الناجمة من الفتق الذي حل في رتق المسلمين، وكأن انفجار صوت القاف يمثل ذلك الحدث المدوي الذي انفجرت به وحدة المسلمين، وانصدع شملهم؛ فانقسموا فرقًا وأحزابًا، وصعوبة تكرار هذا الصوت تمثل صعوبة هذا الحدث على الشاعر، والمشقة التي يعانيها حيال الوضع الذي يعيشه المسلمون بعد وفاة النبي ﷺ .

فضلًا عن تكرار صيغة اسم المفعول (مَفْتُوق، مَرْزُوق) وما يوحي به من قوة في المعنى تناسب قوة إحساس الشاعر بالمصاب الذي داهم الأمة، واستلهامًا لمعنى ذلك البيت ندعو المولى ــ جل وعلا ــ أن يرتق فتقنا، ويجمع شملنا، ويردنا إليه ردًا طيبًا جميلًا.

***

ومع شاعر آخر يصور لنا أثر هذا الخطب على المسلمين، فيقول[2] عبد الله بن أُنَيس:[3] (من الطويل)

نَفَى النَّوْمَ مَالاَ تَبْتَغِيهِ الأَصَابِعُ ● وَخَطْبٌ جَلِيلٌ لِلْبَلِيَّةِ جَامِعُ

غَدَاةَ نَعَى النَّاعِي إِلَيْنَا مُحَمَّدًا ● وَتِلْكَ الَّتِي تَسْتَكُّ مِنْهَا المَسَامِعُ[4]

---

(١) ينظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس مكتبة الأنجلو المصرية ص٥، ١٩٧٩م.

(٢) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٢٣٧.

(٣) هو: عبد الله بن أُنَيْس الجهَني، أبو يحيى المدني، حليف الأنصار: صحابي، شهدَ العقبةَ وأُحدًا، ومات بالشام في خلافة معاوية، سنة أربع وخمسين، ووَهِمَ من قال: سنة ثمانين. تحرير تقريب التهذيب للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: الدكتور بشار عواد معروف، الشيخ شعيب الأرنؤوط، ١٩٢/٢، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ــ لبنان، ط١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

(٤) استكت مسامعه: صُمت. أساس البلاغة: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، مادة: (سكك)، ٤٦٦/١، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

بجملة خبرية أكد الصحابي الجليل أن الذي نفى النوم عن عينه ومنعه من الاقتراب منها أمرٌ عجز عن دفعه أو رده، فجاء الفاعل مصورًا للموقف بصورة حاشدة لصنوف من البيان (مَا لاَ تَبْتَغِيهِ الأَصَابِعُ)؛ كناية عن العجز والقهر الذي حمل المسلمين على التسليم، والوقوف أمامه مقهورين.

وفي التعبير بالأصابع مجاز مرسل لعلاقة الكلية، فالمقصود (مَا لا يَبْتَغِيه المرءُ) فالأصابع أخص الجوارح، وهي ما تقع بها الحركة، ويتم من خلالها معالجة الأشياء، وكأنه يصور لنا البلاء والرزية التي حلت بالمسلمين؛ مكبلًا أصابعهم عن أدنى درجات الحركة، وهي حركة الأصابع فيأخذنا المجاز إلى تصور الأصابع متحركة؛ ثم عجزها عن الحركة بفعل تلك النازلة، فتتجسد أمامنا صورة العجز التي قصدها الشاعر من وراء هذا الأسلوب.

ثم عطف الشاعر على الفاعل قوله: (وَخَطْبٌ جَلِيلٌ لِلْبَلِيَّةِ جَامِع)، وكأن المعطوف مغاير لما عطف عليه، مع إمكانية جعل المصراع الثاني علة للفعل، إلا أن الشاعر أراد أن يعدد تلك الأسباب التي أبعدت النوم من العيون، والمجيء بالمصدر (النَّوْم)، والتعريف بأل؛ مما يوحي بأن هذا الأمر عام يشاركه فيه المسلمون جميعًا، كذا تنكير خطب، وتقديم الجار والمجرور (لِلْبَلِيَّة) على متعلقه، كل هذا الحشد من التراكيب أكد وقوى ما عمد إليه الشاعر من شمول أثر هذه المصيبة على المسلمين، وإصابتهم بالعجز أمامها، ثم يأتي الشاعر في بيته الثاني بزمن هذه الأحداث التي حلت بهم، فيقول: (غَدَاةَ نَعَى النَّاعِي إِلَيْنَا مُحَمَّدًا)، و لم يقصد هذا الظرف لذاته، ولكنه أشار إلى ذلك الزمن الحزين، وتلك الساعات التي وصل إليهم فيها خبر وفاة النبي ﷺ .

وفي ذكر الفاعل (النَّاعِي) مع إمكانية حذفه ما يوحي برغبة الشاعر في تقرير هذا الخبر الذي يعجز العقل عن تصديقه، ورغبة في تقرير الخبر بذكر المسند إليه مع إمكانية حذفه، وكذا قدم الجار والمجرور على المفعول؛ لاهتمامه بإظهار أثر

ذلك الفقد على المسلمين، ثم أشار بالبعيد (تِلكَ) إلى الخبر المتقدم؛ قصدًا إلى إبعاد ذلك الخبر عن قلوبهم وعقولهم، ثم جاء المجاز ليعبر به عن شدة تأثر المسلمين بخبر فقده، و لم يشر إليها إلا بالموصول (التي)؛ لما في الصلة من تقرير للخبر (الَّتِي تَسْتَكُّ مِنْهَا المَسَامِع)، كناية عن شدة دوي هذا الخبر، وقوة تأثيره إلى أن صُمَّت من قوته مسامع كل من سمع هذا الخبر.

ما أقوى هذا المطلع المفعم بالحزن والعجز، الذي أصاب المسلمين هو عجز في جهاز الحركة؛ مما أفقد الأصابع القدرة على التحريك، وعجز في جهاز السمع؛ مما أفقد الأذن القدرة على السمع، وكأن الأمة الإسلامية أضحت تعاني كل أشكال العجز بوفاة هاديها ومرشدها وقائدها، وإن أرشدنا ﷺ بما نهتدي به ونرشد، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَمْرَيْنِ، أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرِ: كِتَابَ اللهِ، حَبْلٌ مَمْدُودٌ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي، وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ"[1]، ولكنها لحظة الفجع وبداية الخطب، صورها الشاعر كما تعتلج في صدره، وينطوي عليها قلبه.

***

وهذا حسان بن ثابت، يصور لنا حال الأماكن التي فارقها النبي ﷺ، فيقول[2]: (من الطويل)

بِطَيْبَةَ رَسْمٌ لِلرَّسُولِ وَمَعْهَدُ ● مُنِيرٌ وَقَدْ تَعْفُو الرُّسُومُ وَتَهْمَدُ

وَلاَ تَمْتَحِي الآيَاتُ مِنْ دَارِ ● بِهَا مِنْبَرُ الهَادِي الَّذي كَانَ يَصْعَدُ

(١) المعجم الكبير، سليمان أبو القاسم الطبراني، ٦٥/٣، تحقيق: حمدي السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤م.

(٢) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٦٦.

فهو يذكر مواطن الرسول ﷺ (مسجده، مصلاه، منبره)، وكأنه يستدعي هذه الرسوم والأماكن لتشاركه الحالة النفسية التي يعيش فيها، فلا شك وأن الجمادات قد شاركت الأحياء الحزن على فقد النبي ﷺ، وكيف لا؟! وقد بكى الجذع الذي فارقه ﷺ في حياته، واعتلى المنبر حتى سمع كل من في المسجد حنينه، وذهب إليه ﷺ حانيًا مشفقًا!، فقد أورد البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ كان "يَخْطُبُ إِلَى جِذْعٍ، فَلَمَّا اتَّخَذَ المِنْبَرَ تَحَوَّلَ إِلَيْهِ، فَحَنَّ الجِذْعُ، فَأَتَاهُ فَمَسَحَ يَدَهُ عَلَيْهِ"(١).

وكأن حسان استعاد استهلال شعراء العصور القديمة، فوقف على الأطلال، مع الفارق بين أطلال الجاهليين، التي اعتاد الشعراء استهلال قصائدهم بالبكاء عليها، ولكن شاعر الرسول ﷺ يقف على قبره ـــ صلوات ربي وسلامه عليه ـــ باكيًا، معددًا البركات والآثار الطيبة التي باركتها خطوات الرسول ﷺ عليها؛ مما جعلها خالدة لا تزول.

وفي البناء التركيبي لذلك الاستهلال ما يدعم المعنى ويقوي بنيانه، بداية بالقصر الذي استهل به المرثية (بِطَيْبَةَ رَسْمٌ لِلرَّسُولِ وَمَعْهَدُ مَنْبَر)؛ مما يخص طيبة دون سواها بهذا الشرف الرفيع، وحق لطيبة وأهل طيبة أن يتفاخروا بهذا الشرف ويتسلوا به عن فقد النبي ﷺ، فآثار المفقودين سلوى للمكلومين، ولا سيما آثار الحبيب المصطفى ﷺ، وفي تنكير (رَسْم، مَعْهَد) بدلالته على التعظيم ما يبني لبنة في هذا البناء.

كما وصف قبر النبي ﷺ بكونه (مِنْبَر)، فاستعار له النجم المنير أو المصباح المنير استعارة مكنية، في محاولة من الشاعر لإبراز رفعة وسمو قدر الرسول الكريم ﷺ حيًّا وميتًا.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب: المناقب، بَاب: عَلاَمَات النُّبُوَّة فِي الإِسْلاَم، ٤/١٩٥.

وفي استعماله (قَدْ) بدلالتها على الشك مع الفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار، ما يهيئ السامع إلى معرفة حال هذه الرسوم السابق ذكرها، فضلًا عن ذلك النغم الموسيقي الذي أضافه التصريع بين (مَعْهَد، تَهْمَد)، وفي قوله: (تَهْمَد) استعارة تصريحية تبعية، فيشبه خلو الرسوم من حركة ساكنيها بالضعف والسكون، فالرسوم والديار تعج بالحياة، وتُملأ بالحركة تبعًا لحركة الأحياء بها، ثم جاء البيت الثاني ليحدد لنا موقف رسوم طيبة من الأحكام التي أعلن عنها في نهاية بيته الأول (وَقَدْ تَعْفُو الرُّسُوم وَتَهْمَد)، فقال: (وَلاَ تَمْتَحِي الآيَاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَة)، فاستخدم الشاعر الأسلوب الخبري؛ مؤكدًا ومقررًا خلود آثار طيبة؛ لما نالها من بركة النبي ﷺ .

وجاءت تراكيب البيت دالة على هذا المعنى، بداية من الأسلوب الخبري الذي بدأ به، وتعريف (الآيَات) بدلالته على عظمة تلك الآيات لعظمة صاحبها، ويبرز القصر بتقديم الجار والمجرور (بِهَا مِنْبَرُ الهَادِي) مختصًّا طيبة بتلك العلامات الشريفة، وتتبلور أمامنا عظمة المشهد في تركيب جملة الصلة (الّذي كَانَ يَصْعَد) وما أفاده امتداد الصوت الناجم من تكرار حروف المد في كل لفظة من ألفاظها، وكأن هذا الامتداد ذهب به إلى الوراء ليستحضر ذلك الزمن الجميل ويتخيل ذلك المشهد الجليل في حضرة رسول الله ﷺ ، وهو (يصْعَد) على المنبر، والمسلمون يحيطون به من كل جانب يلتقطون دره ويهتدون بهديه، فيبث فيهم الحياة ويخرجهم من غيابات الجهل والضلال إلى نور الحق والإيمان، يا لها من عبارة موجزة جامعة لكل صنوف الجلال والعظمة والهيبة!.

لقد كان حسان مختلفًا في مطلعه، مختلفًا في أدوات رثائه، مختلفًا في استدعاء العبرات السواحم، وإن اتفق مع أصحاب المراثي في تعبيره عن الأسى والحزن والألم الذي يحس به كل مسلم بعد موت النبي ﷺ .

***

ويستهل الصديق مرثيته ببيان ما يعانيه من هموم بعد وفاة النبي ﷺ، فيقول[1]: (من البسيط)

بَاتَتْ تَأَوَّبُنِي هُمُومٌ حُشِّدٌ ● مِثْلُ الصُّخُورِ، فَأَمْسَتْ هَدَّتِ

فصور لنا الصديق في مستهل مرثيته حاله بعد فقد النبي ﷺ ، فحشد لتلك الصورة أبنية وتراكيب فائقة البيان في إبراز تلك الصورة.

فبدأ بالجملة الخبرية بزمنها الماضي وما له من دلالة على تحقق وقوع هذا الخبر، فصور لنا الهموم مستقرة بداخله، وفي التعبير بالفعل (تَأَوَّبُنِي) وما يوحي به من المراجعة المتتالية التي لا تترك زمنًا بين مرات الرجوع، وإضافة الفعل إلى الهموم وما فيه من إسناد للسبب؛ مما صور لنا الهموم بضيف ثقيل يعاود الرجوع مع عدم الرغبة فيه، وهي هموم عدة، وليس همًا واحدًا، ولا شك أن أبا بكر كانت تهمه أمور المسلمين، وهي كثيرة جدًا، ومن يشغله أمر المسلمين إن لم يكن الصديق؟!، وفي وصفه للهموم بكونها (حُشِّد) بصيغة المبالغة، فهي ليست حاشدة؛ مما يبرز لنا صورة الهموم وهي تتسابق إليه بنفسها مجتمعة عليه من كل جانب، وتتبلور صورة الهموم أمام الأعين وتبصرها ثقيلة كالصخور، فهو يرى ثقلها على كاهله أشبه بصخرة يصعب تحريكها، كذا الأحزان والأوصاب التي بداخله لا قدرة له على دفعها، وعودة إلى الزمن الذي بدأ به قصيدته (بَاتَت) يرجع إلينا كنتيجة لأثر هذه الهموم على جسده، فيقول: (فَأَمْسَتْ هَدَّتِ الجَسَدَا)، ودلالة الظرف هنا على النتيجة لا على الزمن، فصور الهموم الحشد بصخرة وقعت على جسده، وكأن هذا الجسد جسمت عليه تلك الصخرة، فتهدم هذا البناء، فهو لم يتصدع و لم يتشقق بل تهدم مرة واحدة.

---

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٣٥.

وهكذا تشغل الهموم الحشد خاصة القوم ورؤوسهم، " فعن حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ لَا يَهْتَمُّ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ... "[1].

***

ومرة أخرى تتحدث صفية بنت عبد المطلب عن أثر فقد النبي ﷺ على المسلمينفتقول[2]: (من البسيط)

قَـــدْ كَـــانَ بَعْـــدَكَ أَنْبَـــاءٌ وَهَنْبَثَـــةٌ ● لَوْ كُنْتَ شَاهِدَهَا لَمْ تَكْثُـــرِ

بمطلع قوي يملؤه التأكيد والفزع على حياة المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ استهلت السيدة صفية مرثيتها؛ مؤكدة على تغاير الصورة وضبابية الموقف بعد وفاتهﷺ ، وكان للزمن الذي انتهجته في مطلعها (كَانَ) تأكيدٌ على رسوخ ذلك الخبر، وهذا ما أكده الظرف المضاف إلى كاف الخطاب (بَعْدَك)، وكأنها تستغيث بالنبي ﷺ من هول ما سيأتي بعده، وتقديم خبر كان (بَعْدَك) على اسمها يوحي بخصوصية هذا الزمن، كما يفهم منه استثارة الحزن وتهيج البكاء، ومجيء (أَنْبَاء) بصيغة الجمع يوحي بكثرة الأحداث التي دهمت المسلمين بعد وفاته، وإن كانت وفاة النبي ﷺ نبأ عظيمًا في ذاتها، وقد أحسنت الشاعرة بحسن اختيارها لفظة (هَنْبَثَة)، فقد أثارت تلك اللفظة " صورة كاملة مُشِعة بدلالتها وأصواتها"[4]، فلو تأملنا أصوات حروف هذه الكلمة (هَنْبَثَة) لأوحت لنا بالتناوش والاختلاف والتنازع، فالجرس الموسيقي لهذه الكلمة يوحي بهذه المعاني، فضلًا عن صفات هذه الحروف " الهاء والثاء والتاء"، ففيها رخاوة ووسوسة وصوت خفيف، وفي النون الساكنة والتنوين، صوت نغمته أعلى قليلًا، وفي صوت الباء جلجلة تسكت

---

(١) المعجم الصغير، أبو القاسم الطبراني، ١٣١/٢، تحقيق: محمد شكور أمرير، المكتب الإسلامي، دار عمار – بيروت – لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م، وقال الطبراني: لَا يُرْوَى عَنْ حُذَيْفَةَ إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَادِ.

(٢) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٢٨٥.

(٣) الهنبثة: الداهية، قيل: الأمور والأخبار المختلطة. اللسان، مادة: (هنبث)، والخطب: بفتح الطاء جمع خطبة. اللسان: مادة: (خطب) .

(٤) ينظر: النقد الأدبي الحديث للدكتور غنيمي هلال، ص ٢٩١، دار نهضة مصر للطباعة والنشر – القاهرة، ١٩٩٦م

الأصوات الخافتة حولها، "وفي هذه الصفات ما يمثل صورة أولئك المرجفين في المدينة المتربصين بالمؤمنين أصحاب الأصوات الخاشعة المؤمنة المستكينة، وفي تلاحق حركتي الباء والثاء سرعة وطيش بعد سكون كان في النون قبلهما، ولا غرابة في ذلك، فالموسيقى والصورة عينان في رأس واحد، لا تلقى القصيدة جميلة إلا بهما، ولا يكون الشعر حيًا إلا بهما"[1].

***

(١) ينظر: المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص٤٥٨.

المبحث الثامن

خصائص
استهلال الصحابة في رثائهم
للنبي (ﷺ)

خصائص استهلال الصحابة في رثائهم

- إن شكل القصيدة في مراثي الصحابة لم يختلف عن شكل قصيدة الرثاء، فهي في الغالب كانت ومضات خافتة للحظات من الانفعال العاطفي، فلم نجد تمهيدًا للرثاء، و لم تسبق قصائد الرثاء بوصف للمعارك، أو لرحلة الصحراء مما اعتاده شعراء الرثاء في العصر الجاهلي، فمصيبة موته ﷺ جعلت الصحابة لا يشغلهم عن هذه المصيبة أي غرض آخر، فاندفعوا لرثائه ﷺ، دون الحديث عن أي شيء سواه، إلا أن رثاء الصحابة للنبي ﷺ يخالف رثاء الجاهليين في كثير من جوانبه منها:
- بدا أثر الحضارة واضحًا في نسيج تلك الأشعار، فارتبطت ألفاظها بالحياة العربية الحضرية الإسلامية، فسائر ألفاظ المطالع في مراثي الصحابة قريبة سهلة، مألوفة، واضحة، دارت في كثير منها حول مجموعة ألفاظ الدموع والبكاء، في مثل : (يَاعَيْنُ فَابْكِي) لأبي بكر الصديق، (يَا عَيْنُ جُودِي بِدَمْع) لحسان بن ثابت، (يَاعَيْنُ فَابْكِي بِدَمْعٍ ذَرى) لكعب بن مالك، (قُلْتُ والدَّمعُ كالجُمَانِ عَلى النَّحْرِ) لمسروق بن ذي الحارث، (أَسْعِدِينِي بِدَمْعِكِ الرَّقْرَاقِ) لعمرو بن الفحيل الزبيدي، (أَفَاطِمُ بَكِّي وَلاَ تَسْأَمِي) لسالم القطفاني، (عَيْنُ جُودِي بِدَمْعَةٍ وَسُهُودِ) للسيدة صفية، (أُكَفْكِفُ مِنْ دَمْعِي سَوَاتِرَ عَبْرَة) للسيدة صفية، (مَا لِعَيْنَيِّ لاَ تَجُودَانِ رِيِّـــا) للسيدة صفية، (مَا فَاضَ دَمْعِي عِنْدَ نَائِبَةٍ) لفاطمة الزهراء، (عَيْنُ، جُودِي) لأم أيمن، (أَلاَ يَا عَيْنُ بَكِّي)، لهند بنت أثاثة، (يَا عَيْنُ، جُودِي) لعاتكة بنت عبد المطلب، (أَلاَ يَا عَيْنُ وَيْحَكِ) لأروى بنت عبد المطلب.
- وتفسيرنا لهذه المطالع الباكية، أنها مرآة انعكست عليها مشاعر التفجع والحسرة والألم، فهي على شيوعها وكثرتها ملائمة لعظم مقام الفقيد، فلم يجد

صحابته ﷺ من حيلة إلا البكاء والدموع، فهي حيلة البشر الذي لا يملك حيال الأقدار إلا هي، فهي فطرة إنسانية لا تفارق بشرًا صادقًا في أحزانه، وإن جاءت بعض ألفاظ المطالع غير مألوفة مثل: القيل[١]، تستك[٢]، إفناد[٣]، هنبثة[٤]، فغرابتها بالنسبة لعصرنا، وإن كانت مألوفة واضحة في عصرهم، فغرابة الألفاظ ودلالتها تختلف باختلاف العصور والأزمنة.

- ظهرت الروح الإسلامية على الألفاظ والتراكيب التي استهل بها الصحابة مرثياتهم بها، فكانت قائمة على معانٍ إسلامية، ونابعة من روح الإسلام، وتعاليمه السماوية؛ فمنها ما كان نتاج تأثر مباشر بالقرآن الكريم، وبالسنة المطهرة، وبأخلاق النبي ﷺ ، وصفاته.
- فشاع ذكر صفات النبي ﷺ المستمدة من وصف القرآن الكريم، منها (خير البرية والمصطفى) كعب بن مالك، (النور الذي كان للعباد سراجا) عامر بن الطفيل، المصطفى من آل هاشم ، عاتكة بنت عبد المطلب، وقول عمرو بن العاص: (هل الإله عليه)، وقال ذو الكلاع متسليًا بتوحيده لربه[٥]:

إنْ يَكُنْ مَاتَ فَهَذَا رَبنَا ● لَمْ يمت وَاللهِ حَي لَمْ يَزَل

فالرسول بشر يموت كما يموت الناس، والعزاء في الله الحي الباقي.

وقال حسان بن ثابت في رثائه للنبي ﷺ [٦]:

بِطَيْبَةَ رَسْمٌ لِلرسُولِ وَمَعهدُ ● مُنيرٌ ، وَقَدْ تَعفُو الرسُومُ وَتَهمدُ

وَلاَ تَمْتَحِي الآياتُ مِنْ دَارِ حرمةٍ ● بِها منْبرُ الهَادِي الذِي كانَ يصعدُ

---

(١) مرثية عبد الله بن مالك الأَرْحَبِيّ.
(٢) مرثية عبد الله بن أنيس.
(٣) مرثية حسان بن ثابت.
(٤) مرثية صفية.
(٥) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ١٨٥.
(٦) المرجع السابق، ص ٦٦.

فذكر في مطالعها تلك المعالم الإسلامية المقدسة التي شرفت بوجود النبي ﷺ فيها.

ومنهم من استوحى قصص الأنبياء السابقين، عمر بن الخطاب[1]:

وَقُلْتُ يَغِيبُ الوَحي عَنَّا لفقدِهأَتَى: كَمَا غَابَ مُوسَى، ثُمَّ يَرجعُ كَمَا رَجعْ

- وإن كان للإسلام أثر جلي في مطالع مراثي الصحابة في الألفاظ والعبارات والتراكيب التي طبعت بطابع الإسلام، وفاحت منها تعاليمه وهدي نبيه، كذلك أبعد الإسلام ألفاظًا ذات دلالات لا تتفق مع التعاليم الإسلامية؛ لما لها من صلة بالعادات الجاهلية التي نهى عنها الإسلام، مثل الصدى والهامة، والقول بسقيا القبور، مما كان شائعًا في مراثي الجاهليين، فضلًا عن تهذيب بعض الألفاظ التي كان حضورها جليًّا في الشعر الإسلامي.
- كما برزت بعض الخصائص البلاغية في مراثي الصحابة، منها: التكرار، وكان له أثر كبير في مراثي الصحابة، يجري في القصيدة جريًا لمكان الفقد من نفس المتكلم والمتلقى، وكأن أحزانهم المتكررة استدعت تكرار ما يدل عليها من عبارات الحزن والحسرة والتفجع تأكيدًا لحالة الحزن، وكأن الصحابة بتكرارهم هذا يريدون لقلوبهم ألا تنسى مع كل لفظة حزن، ولعيونهم أن لا تكفكف دموعها، وتكرار اسم الرسول في مطالع الصحابة جليٌّ جدًّا، وما ذلك إلا تلذذ المحب الذي غاب عنه حبيبه، فأكثر من ذكر اسمه، وما يحمله هذا الذكر من ألم وحنين[2].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٢١.

(٢) مرثية مُرِّان، مرثية العتكي، مرثية عبد الله بن مالك الأرحي.

- ويعزي عبد الله بن سلمة نفسه بأن الموت حتم، ويعجب ممن يفكر في الهرب منه، فيكرر عليهم هذا المعنى (لَيْسَ مِنَ المَوْتِ فِرَارٌ، وَأَيْنَ أَيْنَ الفِرَارُ؟).
- ومنهم من كرر لفظ المنية[1]، ولفظ الجزع[2]، ولفظ الليل، ولفظ المُصِيبَة[3] والزَفَرَات[4] والرِّزِية[5]، وغيرها من الألفاظ التي تستدعي الأحزان وتهيج المدامع، وقد كان التكرار سجيّة في رثاء العربي، ولعل ما حرّضهم على ذلك نساؤهم اللائي كن يُنحْن على موتاهن، فيرجعن صيغًا بعينها، وكلمات بعينها، ويعددن المآثر والصفات[6]، فيماثل تكرار تلك الصيغ والعبارات تكرار نغمة البكاء الممتد، والحزن المستمر الذي يندبن به الموتى التي استهل بها الصحابة مراثيهم.
- جاء الجناس في بعض الألفاظ (الرَّقْرَاق ، الفِرَاق) مرثية عمرو بن العجيل، (المُنَى والمَنَايَا) مرثية أبي الهيثم، (زَفَرَاتِهَا ، الزَفَرَاتِ) مرثية علي بن أبي طالب، (أَسْبَالِ وإِعْوَالِ) مرثية حسان، (مَعْهَدْ، تَهْمَدْ) حسان بن ثابت، (طَوِيْل، قَلِيْق) مُرِّان بن عمير.
- و لم يكن الجناس متكلفًا، وإنما استدعته طبيعة شعر الرثاء الذي يميل إلى التنغيم الحزين، فأعانهم التجنيس على استصدار تلك النغمات الباكية المعبرة عن حرقة أفئدتهم.

---

(١) لبيد بن ربيعة.

(٢) أبو سفيان.

(٣) مرثية سؤاد بن قارب.

(٤) مرثية على بن أبي طالب.

(٥) مرثية حسان بن ثابت.

(٦) المراثي النبوية في أشعار الصحابة ص٤٠٢.

- وجاء الطباق في استهلال بعض الصحابة لمراثيهم، وخاصة في المطابقة بين حياة الرسول وموته؛ إظهارًا لتلك المفارقة المرة، والخطب الجلل الـــذي ألمَّ بالصحابة، وكأنهم يقدمون أسبابهم للرثاء بجلاء هذه الحقيقة، فقد رأوا فرقًا شاسعًا بين حياتهم في حضرة النبي ﷺ ، وحياتهم بعد موته ، نـــرى ذلـــك واضحًا في مطلع مرثية ذي الكلاع (قَدْ أَتَى حِمْيَرَ أَمْرٌ شَامِلٌ) وقولـــه: (إنْ يَكنْ مَاتَ فَهَذَا رَبنا)، ومطلع عبد الله بن أنيس (فإن مـــات فالإســـلام حي..)، ومطلع أبي الهيثم (أَلاَ قَدْ أَرَى أَنّ المُنَى لَمْ تُخَلّدِ).
- شاع في استهلال الصحابة لمراثيهم ذكر أسماء الأعلام والبلدان (أَهْـــوَدُ، الخداني، خَمِيصَةُ بْنُ أَبَان، فَاطِمَة، عَمرُو، سَوَاد، همدان، فَاطِمة)، فكـــل علم من هذه الأعلام يبعث في نفس الشاعر والمتلقي صـــورة مـــن صـــور الحدث المفزع، فألقت هذه الأسماء الحضور في ذلك الجو الذي عاش فيـــه الصحابة ساعة رثائهم، ورمزت إلينا بما دار في هذا المشهد المـــرتبط بهـــذه الشخصيات من بكاء وحزن وفقْد وفداء، فلو تأملنا ذكر السيدة فاطمـــة، وما يمثله لنا من استحضار مشهد ذلك اليوم، وكأننا نتجرع معها المـــرارة التي تجرعتها، فنبكي بكاءين: بكاء لفقد الرسول، وبكاء لبكاء الابنة المحبة التي اجتمعت حولها النساء يواسينها، ويشددن من أزرها.
- وكما كان لذكر الأعلام دلالته النفسية الموحية بأحداث وإشارات، كذا ذكر القبائل والأماكن يستحضر أمامنا صور الفريق الذي ثبت بعد وفـــاة النبي ﷺ، واستمر في الدفاع عن الدين، وفريق ضعف وتخاذل، كما توحي لنا بعض الأماكن ببقاء آثار النبي ﷺ المباركة بوجوده فيها، مثل (طَيْبَـــة- مِنْبَر- عرسن- القَبر- المَنزِل).
- يختلف الصحابة في مستهل رثائهم في الحديث عن رسول الله ﷺ، فمنهم من يتحدث عنه باسمه (محمد) ﷺ دون وصفه، وذلك عند حـــديثهم عـــن

وفاته ونعيه، وكأنهم يريدون الإقرار ببشريته وحتمية انقضاء أجله شأن البشر جميعًا، فتهدأ الأنفس الثائرة، وتقر الحقيقة التي لا مجال لإنكارها.

- وعن حديثهم عن الفقد وأثره عليهم يستهلون ذلك بوصفه ﷺ ، فيقولون: (النَبِي- الهَادِي- المُصْطَفَى- السِرَاج- البَشِير- المُهْتَدِي) ، وما تمثله هذه الصفات التي افتقدوها بفقده ﷺ .
- شاع في مطالع الصحابة ورود ألفاظ الظروف المختلفة (الغَدَاة)[١]، (أَمْسَى)[٢]، (باتَتْ)[٣]، (بِلَيْلٍ)[٤]، (بَكَرَ)[٥]، (الدهر)[٦].
- وما في ذكر تلك الأزمنة إشارة إلى وقت بعينه، وإنما هي علامات على فجأتهم وصدمتهم، في هذه الأوقات التي تمثل لكل منهم زمن الحدث والفجيعة، وكأنهم لم يفيقوا من نومهم بعد، كما يوحي تعدد تلك الأزمنة بشمول الحزن والكآبة، وكأن الإحساس بالخبر محيط بكل أزمنتهم، كما يوحي بسرعة انتشار الخبر، وكأن تلك اللحظة الأليمة لم ينسوها، وسجلوها في تاريخ أزمانهم.
- جاء أسلوب الشرط في بعض مطالع المراثي النبوية، كقول عبد الله بن مالك الأرْحَبِيّ : (لَعَمْرِي لَئِنْ مَاتَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ، لَمَا مَاتَ يَا ابْنَ القَيْلِ رَبُّ مُحَمَّدِ)، فلم يأت الشرط لمجرد الربط بين أجزاء البيت، ولكنه قصد منه التعزية بالله ﷻ عن فقد النبي ﷺ ، ومنهم من استخدم الشرط ليدلل

---

(١) مرثية سواد بن قارب.

(٢) مرثية عاتكة بنت زيد، والسيدة فاطمة الزهراء.

(٣) مرثية أبي بكر الصديق.

(٤) مرثية علي بن أبي طالب وسفيان بن الحارث والسيدة صفية.

(٥) مرثية هند بنت أثاثة.

(٦) مرثية عاتكة بنت عبد المطلب.

على أحقية الفقيد بالبكاء الغزير، كقول عمرو بن سالم: (لَئِنْ جَادَتْ لَكَ العَيْنُ بِالبُكَا، لَمَحْقُوقَةٌ أَنْ تَسْتَهِلّ وتَدْمَعَا) .

- كما استهلوا بالشرط لبيان أن موت النبي ﷺ أمر حتمي، فلا بد من التزام التجلد والصبر، كما جاء في استهلال أبي النعمان العتكي (إِنْ كَانَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ، أَوْدَى بِهِ الأَمْرُ الّذِي لاَ يُدْفَعُ،فَلَقَدْ أُصِبْنَا بِالنَّبِيّ، وَأَنفُنَا).
- ومنهم من أبان عن حالته بعد فقد النبي ﷺ بأسلوب الشرط، كقول أبي بكر: (لَمَّا رَأَيْتُ نَبِيَّنَا مُتَجَدِّلًا، ضَاقَتْ عَلَيَّ بِعَرْضِهِنَّ الدُّورُ)، فاستحسن الصحابة الاستهلال بأسلوب الشرط، لما فيه من جملة أولى تحمل أساهم وحزنهم، وجملة الجواب حملوها موقفهم من هذا الأسى والباعث عليه.
- وتطفو الحكمة على سطح الحدث المفجع في بعض مراثي الصحابة على الرغم من حرقة الأكباد وتقرح المآقي، فظهر العقل والحكمة الذي حال بينهم وبين الانسياق خلف العواطف الجارفة، وظهر الإيمان الواقر في قلوبهم في هذا الموقف الجلل، فهذا أبو الهيثم تبرز حكمته في هذه الأجواء متصبرًا بها وداعيًا إلى غيره من المسلمين بالتصبر، فيقول[1]:

ألاَ قَدْ أَرَى أَنّ المنَى لَمْ تخلد ● لأنّ المنَايَا للنفُوس بِمَرصَد

- وعبد الله بن سلمة يستجلي حقيقة الموت وحتميته، وأنه لا ملجأ ولا فرار منه، فيقول: (لَيْسَ مِنَ المَوْتِ فِرَار وَأَيْنَ أَيْنَ الفِرَارُ؟)، تلك هي الحقيقة الإنسانية الكبرى، التي تلزم عتاة الجبابرة بالتسليم بها.
- عظم في نفوس كثير من الصحابة التلفظ بـ (مَاتَ)، وهم يصورون موت النفس الشريفة، فاتقوا ذكر تلك الكلمة، ولجؤوا إلى فنون من القول لتصوير لتلك الحقيقة، فعزَّ على صحابته أن يكون حبيبهم ميتًا كسائر الناس، فقال بعضهم: (فراق النبي ﷺ) عمرو بن العجيل، (نَعَى محمد ﷺ)

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٢٣٣.

ابن ذي أصبح، (أَصْبَح ثَاوِيًا) حسان بن ثابت، (فَقْد النبي ﷺ) عبد الله بن سلمة، (قد أَتَى حمِيَر) ذو الكلاع، (حيْنَ ضمنه بطن الضرع) حسان بن ثابت، (أَوْدَى بِهِ الأمر) أبو النعمان العتكي، (أَوْدَى بِهِ القَدر) عبد الله بن أنس، (أن الخَيْر فَارَقهم) حسان بن ثابت، (ذَهَب النبي ﷺ) ابن أبي عزة، فصوروا موت النبي ﷺ بصورة المفارق ، وبصورة الخير الذي فارق أهله، وبمن ذهب بعد مكث.

- كما صوروا وجوده بينهم بالنور الذي غاب، وبالسراج الذي أفل، وبالرحمة التي ولت، وبالخير الذي فارق ، وهم يتأسون بوصف القرآن الكريم للنبي ﷺ، وشبهوا ما أصاب عيونهم من كثرة البكاء بعين ذلك الأرمد، وبمن أصابه الكلال.
- كما شبهوا خطورة ارتداد بعض القبائل بالسيف القاطع، كما في مرثية عدي بن حاتم[1]:

ألاَ إِنّ الأَمْـــرَ أَصْـــبَحَ أَهْلُـــهُ ● عَلَى مِثْلِ حَدِّ السَّـــيْفِ بَعْـــد محمـــدِ

- ومنهم من شبه الهم على صدره بالصخور، مثل قول أبي بكر (هُمُومٌ حُشِّدٌ، مِثْلُ الصُّخُورِ...).
- لا يفوتنا التنويه على ظاهرة تشخيص مظاهر الطبيعة من الليل والنهار والشمس والسماء والأرض، فخلع الراثون حللًا كئيبة على الخلائق المحدقة بهم، ولا سيما صفة البكاء التي هي من خصائص الإنسان، "وفي هذا النوع من الصور فائدتان: ١ – الوقوف على مدى حزن الشاعر، وكيف ينفلت منه فينطبع على ما تبصره عيناه، ٢ – الإشارة إلى سعة هذا الحزن، واستشرائه؛ ذلك أن الطبيعة يمكن أن تتحول بين يدي الشاعر إلى وعاء

(١) المرجع السابق، ص ٢٣٦.

يفرغ فيه عواطفه، بحيث يصبح أساه أو حزنه جزءًا من طبيعة آسية، أو مرآة تنعكس منها آلامه، شاء أو لم يشأ"[1].

- وتشخيص الجماد يعني أن جميع مظاهر الطبيعة الحسية والمعنوية إنما تجمع بينها الوحدة العميقة، والعلاقات الوثيقة، فكل الكائنات من حولنا تبدو وكأن لها حياة خفية، وكيانًا يشبه كياننا، ينفعل بالأحداث، وتخلع عليه صفات ومشاعر البشر، وتصوراتهم العقلية المجردة تضاف إليها الأشياء المادية المحسوسة.
- كما اتخذوا من الاستعارة بنوعيها سبيلًا لإخراج ما أضمرته صدورهم من حزن ولوعة، كقول العتكي يصور حالة قومه بوفاة النبي ﷺ [2]:

فَلَقَــدْ أُصِــبْنَا بِــالنَّبِيِّ وَأَنْفُنَــا ● وَالرِّاقِصَاتِ إِلَــى الثَّنِيَّــةِ أَجْــدَعُ
وَقُلُوبُنَا قَرْحَــى وَمَــاءُ عُيُونِنَــا ● جَــارٍ وأَعْنَــاقُ البَرِيَّــة خُضَّــعُ

فهي صورة كلية ممتدة ، جمعت عددًا من جزيئات المشهد الحزين، فجعل إصابتهم بالنبي ﷺ وليس بفقده، وصورة الأنف المجدوع كناية عن الإذعان والتسليم، كما صور القلوب المتقرحة وكأنها قد أصيبت بجرح غائر فتقرح هذا الجرح، كذا تصوير دموع العين الغزير بالماء الجاري، كل هذه الصور الجزئية ختمت بخضوع الأعناق، كناية عن التسليم والانكسار والهزيمة.

وفي قول ابن ذي أصبع : (صَدَعَ القُلُوبَ) استعارة تبعية؛ حيث شبه أثر فقد النبي ﷺ بالصدع، لم يكن للمجاز المرسل حضور كبير في مطالع المراثي؛ لكون الصحابة أبعد ما يكونوا عن إعمال العقل يومئذ.

---

(١) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ٤٤٨.

(٢) المرجع السابق، ص ١٧٩.

ومن صور المجاز قول عبد الله بن أنس:(نَفَى النَّوْمَ مَا لاَ تَبْتَغِيهِ الأَصَابِعُ) مجاز مرسل، علاقته الكلية، وقول السيدة صفية[1]:

أَفَـــــاطِمُ صَـــــلِّى اللَهُ ● عَلى جَـــدَثٍ أَمْسَـــى بِيَثْـــرِبَ ثاويـــا

قولها: (عَلَى جَدَث) مجاز عقلي علاقته الحالية، فقصدها صاحب الحدث الذي ثوى فيه، تكريمًا لذلك الجدث الذي دفن فيه النبي ﷺ، ويمكننا اعتبار هذه الصورة من قبيل الكناية عن نسبة التكريم له ﷺ .

" وفي نداء العين، ونداء النفس والقلب أسلوب بني على نوع من الخيال يصير به أبعاض الإنسان كأنها أناس لها تميزها المستقل، وتشخصها المتميز، وبهذا يتسنى لصاحب البيان أن يتجه بالقول إلى هذه النفس أو العين، ويسوق لها الحديث، لائمًا أو ناصحًا أو مستعينًا "[2].

تمتاز عاطفة الصحابة في مراثيهم بالصدق، والسمو، والنبل، فلم يحرك عواطفهم إلا حب رسول الله ﷺ ، واستثقالهم الحياة من بعده، فلم يحركها طمع في منصب أو جاه، فجاءت كل صور الصحابة موافقة لما يسري في وجدانهم من حزن وفجيعة على موته وفراقه.

إن العاطفة الصادقة هي التي أنطقت الصحابة بأروع المراثي، ومنهم من لم يعرف بنظم الشعر، فهي قصائد نتجت من إحساس صادق، معبر عن أوجاع الفراق والحنين، ومشاعر حقيقية ما إن لامست السمع حتى استقرت في القلوب، وفاضت منها العيون بأحر العبرات وأسخنها، وإن كانت عاطفة الصحابيات أكثر لوعة من الصحابة، وخاصة مراثي آل بيت رسول الله ﷺ ، فبرز الصدق في أشعارهن، فحركت العاطفة أوتار الحزن، وهيجت مكامن اللوعة والأسى، فالمرأة تجل من

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٩٦.

(٢) قراءة في الأدب القديم، أ.د/ محمد محمد أبو موسى، ص ٢٦٧، مكتبة وهبة، ط٤، ١٤٣٢ه ـــــــ ٢٠١٢م.

يحسن إليها، ويعطف على حالها، ويقوي من ضعفها، فقد كان الأمل والرجاء الذي يعقدون عليه آمالهم، وإن كانت عاطفة المرأة أشد في البكاء، إلا أن بكاءهن على النبي ﷺ أشد حرقة، وألذع مرارة من كل ما سبقه من مَرَاثٍ؛ مما أبرز أشعار الصحابيات، وكأنها أحزان السيدة فاطمة ابنته، والسيدة عائشة زوجته، والسيدة صفية وأروى وعاتكة عماته، رضوان الله عنهن جميعًا.

"ولم نقرأ في رثاء النبي ﷺ لبعض الشواعر الكبار ممن كان لهن أطول باع في الرثاء كالخنساء، ولعل السر في ذلك يكمن في عمق يقينها بمكانة المفقود عند ربه جل وعلا، وذلك ما أسكتها عن نعي أبنائها الذين استشهدوا جميعًا، فقد اطمأنت إلى علو مكانتهم عند ربهم، على الرغم من كونها قد ملأت أسماع الدهر أشعارًا في رثاء أخويها صخر ومعاوية قبل الإسلام، ولعل ذلك لموتهم على الكفر، وخوفها من سوء عاقبتهم، وربما كان كبر سنها سببًا في إعراضها عن قول الشعر، وقد تكون قد قالت شعرًا، ولم يصل إلينا"(١).

وعلى الرغم من غلبة الأشعار على أحزان الصحابة، فجاءت مطالع قصائدهم مكبلة بغزيز دموعهم، وأنين صدورهم، إلا أن حفظ الدين، وتثبيت أركانه غالب أحزانهم، وأظهر خوفهم على حمى الدين من كارثة الردة، فاستهلوا مرثياتهم للتنبيه على هذا الخطر الذي يحيق بالأمة الإسلامية، كقول ابن أبي عزة: (ذَهّب النبي فرتقنا مفتوق)، وقول السيدة صفية: (قَد كانَ بَعدكَ أنباءٌ وهنبثة)، وقول ابن ذي المشعار: (أَلاَ كُلُّ أَمْرٍ وَإِنْ جَلّتْ مُصِيبَتُهُ)، وقول عدي بن حاتم: (ألا إن الأمر أصبح أهله)، وهذا امرؤ القيس بن عابس، يحذر من خطر الغانيات اللائي شمتن في موت النبي ﷺ، فيقول:

شِمتَ البَغَايَا يَـوْمَ أَعْلَـنَ ● بِنَعِيّ أَحْمَدٍ النَّبِيِّ المُهْتَدِي

---

(١) ينظر: رثاء الرسول ﷺ في أشعار الصحابيات رضي الله عنهم : أ.د/ عبد الله فتحي طاهر، آداب الرافدين، العدد ٤٠، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

فقضايا الأمة الإسلامية، والحرص على أمور الدين لا ينشغل عنه المسلمون بشاغل، وإن كان حزنهم لفقد النبي ﷺ، فهم يرون في إبعاد الشامتين، والإغلاظ عليهم، ومحاربة المرتدين، وإرجاعهم إلى حديقة الإسلام من قبيل رثاء النبي ﷺ، ويرون إعلاء كلمة الدين، ومناصرته، وفاء للنبي ﷺ، وامتثالًا لأمره، فمزجوا معاني الوفاء والطاعة بقصائد الرثاء، فجاءت فوق ما يحمله البكاء والنواح.

- لقد نظم شعراء المراثي قصائدهم على عشرة أوزان: الطويل، والكامل، والبسيط، والخفيف، والمتقارب، والوافر، ومجزوء الكامل، والرمل، والسريع، والرجز. وبحر الطويل أكثر البحور التي نظم عليها الصحابة مراثيهم، يليه الكامل، وهذا يؤيد الفكرة التي ذهب إليها بعض النقاد من الربط بين العاطفة والوزن، يقول د/ إبراهيم أنيس: "نستطيع ونحن مطمئنون أن نقرر أن الشاعر في حالة اليأس والجزع يتخير عادة وزنًا طويلًا، كثير المقاطع، يصب فيه من أشجانه ما ينفس عن حزنه وجزعه "[1]، ومع ذلك نحن نؤمن أن الشاعر لا يترصد البحث عن وزن وقافية، أو شكل بعينه لتخرج فيه أفكاره، ولكنه يتحرك مع انفعالاته النفسية، ويكتمل بناء القصيدة بداخله، فتخرج إلى النور كاملة، بوزنها وقافيتها وشكلها النهائي، فتخرج القصيدة في الوزن الذي صادف تفاعلًا مع انفعالات الشاعر، فالقصيدة عمل تتآزر أجزاؤه، ويفسر كل منها الآخر، حتى تخرج إلى صورتها النهائية، وبحر الطويل من البحور التي تتطلب نفسًا شعريًا طويلًا من الشاعر؛ لكثرة تفعيلاته، وإيقاعه الطويل يمنحه صفة القوة، مما يتناسب مع المراثي التي يحتاج شعراؤها إلى امتداد في النفس؛ ليتناسب مع امتداد نغمة الحزن لديهم.
- وجاء التصريع في مطالع المراثي، وقد عول العلماء على أهمية التصريع في مطلع القصيدة؛ "لأنه يميز بين الابتداء وغيره، ويفهم منه قبل تمام البيت روي القصيدة

(١) موسيقى الشعر: د/ إبراهيم أنيس، ص١٧٥، مكتبة الأنجلو المصرية ـــــ القاهرة، ط٢، ١٩٥٢م.

وقافيتها"[1]، ولم يأتِ التصريع كثيرًا، ولعل مرجع ذلك للطبع،وعدم التكلف لطبيعة الرثاء، وغلبة مشاعر الحزن والهلع على الشعراء، ومنه قول كعب[2]:

ألا انْعِ النَّبِيَّ إِلَى العَالَمِيْنَا ● جَمِيعًـــا وَلَـــا سِـــيَّمَا المُسْـــلِمِيْنَا

وقول حسان بن ثابت[3]:

يَا عَيْنُ جُودِي بِـدَمْعٍ ● وَلاَ تَمَلـــنِّ مِـــنْ سَـــحٍ وَإِعْـــوَالِ

وقول الصديق[4]:

أَجِدِّكَ، مَا لِعَينِكَ لَا تَنَـامُ ● كَـــأَنّ جُفونَهَـــا فِيهَـــا كِلَـــامُ

(١) سر الفصاحة: أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، ص١٨٩، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٢هـ ـــــ١٩٨٢م.

(٢) المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص ١٢٤.

(٣) المرجع السابق، ص ٧٨.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٨.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تستكمل الطاعات، وبتوفيقه تذلل الصعوبات، وأصلي وأسلم على آله وصحبه، ومن تمسك بسنته حتى مات، وبعد...

فقد ذهب الصحابة في مطالع مراثيهم مذاهب مختلفة، باختلاف إحساس كل منهم، وَفقًا لحاجته التي كان يحققها وجود رسول الله ﷺ بينهم.

- دارت في مطالعهم ألفاظ معبرة عن الحزن والأسى الذي يتجرعون مرارته، ونعتوا النبي ﷺ بنعوت، هي أليق بما يفتقده كل منهم.
- جاءت ألفاظ المطالع واضحة جزلة، لا يكاد يوجد فيها لفظة غريبة.
- سادت في المطالع بعض الفنون البلاغية التي حملت مشاعر الصحابة وأحاسيسهم، أبرزها: أسلوب الشرط، والتكرار، والاعتراض، والتجريد، والتعجب، والنداء، والقسم، والطباق، وأفاد كل منهم مقصود صاحبه، وأبان عن غايته.
- ظهرت المعاني الإسلامية جلية في بعض المطالع، طبعت بروح الإسلام وتعاليمه، وتجلى ذلك في عزاء الصحابة بالمولى ﷻ، وفي حرصهم على لحمة الدين، وصد أعدائه.
- وجاءت الصورة واضحة في استهلال الصحابة لمراثيهم، وصورت وقْع المصيبة عليهم، كما صورت حالهم بعد النبي ﷺ، واستعانوا بوسائل التصوير البيانية من تشبيه، واستعارة، وكناية، ومجاز.

- شاع في استهلال الصحابة النغم الموسيقي داخل الأبيات، كالجناس، والرصف، والإرصاد، والتكرار؛ مما أحدث توافقًا بين الإيقاع والمعاني التي أراد الشاعر التعبير عنها.
- لم تلتزم المراثي وزنًا بعينه، ونظمت على معظم بحور الشعر، وكان لبحر الطويل الغلبة في هذه الأشعار؛ لما له من تفعيلة ممتدة مناسبة لامتداد نغمة الحزن.
- أغلب تلك المطالع كان بعيدًا عن الصنعة، فهي استجابات نفسية لمشاعر الحزن، والإحساس العميق بعظم النازلة عن عاطفة جمعت بين الشعور الخاص بالفقد، والشعور الجماعي به.
- خلت تلك الأشعار من مقدمات، فقد قيلت في وقت لم يمهل فيه أصحابها من النظم المتأني، فهي لمحات تطرق فتظهر أشعارًا معبرة بصدق عن مشاعرهم.
- أنطقت الحادثة ألسنًا لم تكن تعرف الشعر من قبل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

د/ فريدة محمد علي حسن

أستاذ مساعد بقسم البلاغة والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات القاهرة

المراجع والمصادر

١) أحاديث الشعر والشعراء " رؤية حضارية" د/ الحسين زروق، ط١، دولة الكويت، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م.

٢) الأدب الأندلسي، د/ أحمد هيكل ص، دار المعارف ـــ مصر، د.ت.

٣) أساس البلاغة: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

٤) الأساليب الإنشائية في شعر الملك الأمجد بهرام شاه الأيوبي ت ٦٢٨هـ، دراسة بلاغية تحليلية، رسالة ماجستير في البلاغة والنقد، إعداد: مي أحمد السيد طلحة.

٥) الاستيعاب في معرفة الأصحاب: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

٦) أسد الغابة: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير، دار الفكر ـــ بيروت، ١٤٠٩هـ ـــ ١٩٨٩م.

٧) الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر أحمد بن علي العسقلاني، ت/ على محمد البيجاوي، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ.

٨) الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٩م.

٩) الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير: أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المناهل، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ ـــ ١٩٨٧م.

١٠) بناء القصيدة في النقد العربي القديم (في ضوء النقد الحديث): د/ يوسف حسين بكار، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ــ لبنان، ط٢، د.ت.
١١) تاج العروس من جواهر القاموس: محمد بن محمد المرتضى الزبيدي، الكويت، ط٢، د.ت.
١٢) تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير والأعلام: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تحقيق: الدكتور بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠٣م.
١٣) الجزء المتمم لطبقات ابن سعد (الطبقة الرابعة من الصحابة ممن أسلم عند فتح مكة وما بعد ذلك): أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع المعروف بابن سعد، تحقيق ودراسة: الدكتور/ عبد العزيز عبد الله السلومي، مكتبة الصديق، الطائف ــ المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ.
١٤) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، للبغدادي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي ــ القاهرة، ط٤، ١٤١٨هـ ــ ١٩٩٧م.
١٥) خصائص التراكيب، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، أ.د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة ط١، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م.
١٦) دراسات لأسلوب القرآن الكريم، أ/ محمد عبد الخالق عضيمة، تحقيق: الأستاذ/ محمود محمد شاكر، دار الحديث القاهرة، د.ت.
١٧) دلالات التراكيب دراسة بلاغية ، أ.د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط٥، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م.
١٨) ديوان ابن شُهَيد الأندلسي، جمعه وحققه: يعقوب زكي، راجعه: د/ محمود علي مكي، دار الكاتب العربي ــ القاهرة، د.ت.
١٩) ديوان المتنبي، دار بيروت، ١٤٠٣ه ــ ١٩٨٣م.

٢٠) ديوان حافظ إبراهيم، ضبطه وصححه وشرحه: أحمد أمين وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ١٩٨٧م.
٢١) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق د/ سيد حنفي حسنين، دار المعارف.
٢٢) ديوان ذي الرمة، قدم له وشرحه: أحمد حسن بسبح، دار الكتب العلمية ـــ لبنان، ط١، ١٤١٥ه ـــ ١٩٩٥م.
٢٣) رثاء الرسول ﷺ، أشعار الصحابيات، أ.د/ عبد الله فتحي ظاهر، قسم اللغة العربية، كلية الآداب،جامعة الموصل.
٢٤) الرثاء في الشعر العربي وجراحات القلوب، د/ محمود حسن أبو ناجي، جامعة الملك عبد العزيز، دار مكتبةالحياة، بيروت، ط١، ١٤٠١ه.
٢٥) سر الفصاحة: أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٢هـ ـــ١٩٨٢م.
٢٦) سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ١٩٩٨م.
٢٧) شاعرات حول الرسول محمد عبد الرحيم ، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.
٢٨) شرح ابن عقيل، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث ـــــــ القاهرة، ط٢٠، ١٤٠٠هـ ـــ ١٩٨٠م.
٢٩) الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، أ.د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط٢، ١٤٣٢هـ- ٢٠١٢م.
٣٠) شعر الرثاء في صدر الإسلام دراسة موضعية فنية ، د/ مصطفى عبد الشافي الشوري، دار المعارف ط١، ١٩٨٦م.
٣١) شعر شمس الدين محمد الهاشمي الكوفي، جمع ودراسة: د/ حسين عبد العالي اللهيبي، مركز دراسات الكوفة ـــ جامعة الكوفة، ٢٠٠٩م.

٣٢) شعراء الرسول في ضوء الواقع والقريض، قدم له سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسيني النَدوِي ، تأليف سعيد الأعظمي الندوي، أشرف عليه سعادة الشيخ محمد الرابع الحسيني الندوي، مكتبة الصفاء ، أبو ظبي ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٣٣) شيخ البلاغيين محمد محمد أبو موسى، بحوث مهداة لفضيلته بمناسبة تجاوزه الثمانين، قدم لها: أ.د/ إبراهيم صلاح الهدهد، مكتبة وهبة، ط١، ١٤٤١هـ- ٢٠٢٠م.

٣٤) صحيح البخاري، أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١،١٤٢٢هـ.

٣٥) صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٣٦) العقد الفريد لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، دار الكتاب العربي- بيروت- لبنان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٣٧) علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم، دراسة بلاغية نظرية وتطبيقية، أ.د/ إبراهيم صلاح السيد الهدهد، مكتبة الإيمان.

٣٨) علم البديع عند الشيخ محمد محمد أبو موسى، كتبه وعلق حواشيه الأستاذ الدكتور- محمود توفيق محمد سعد، مكتبة وهبة، ط١، ١٤٤٠هـ- ٢٠١٩م.

٣٩) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، تحقيق حسام الدين القدسي، مكتبة القدس للطبع والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.

٤٠) في الشعر الإسلامي والأموي، د/ عبد القادر القط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر – بيروت- لبنان، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٤١) القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادى، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ــ لبنان، ط٨، ١٤٢٦ هـ ــ ٢٠٠٥م.
٤٢) قراءة في الأدب القديم، أ.د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط٤، ١٤٣٢هـ- ٢٠١٢م.
٤٣) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، تحقيق: د/ مفيد قميحة، دارالكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٩ه.
٤٤) لسان العرب، لابن منظور، دار صادر ، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
٤٥) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت.
٤٦) المراثي النبوية في أشعار الصحابة توثيق ودراسة، محمد شمس عقاب، مكتبة الإمام التجاري للنشر والتوزيع، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م.
٤٧) المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري المعروف بابن البيع، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ــ بيروت، ط١، ١٤١١ه – ١٩٩٠م.
٤٨) مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة ــ بيروت، ط٢، ١٤٢٠هـ.
٤٩) معاني التراكيب دراسة تحليلية في مباحث علم المعاني، أ.د/ عبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربي، ط١، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م.
٥٠) معجم البلدان:ياقوت الحموي، دار الفكر ــ بيروت، د.ت.
٥١) المعجم الصغير، أبو القاسم الطبراني، تحقيق: محمد شكور أمرير، المكتب الإسلامي، دار عمار ــ بيروت ــ لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

٥٢) المعجم الكبير، سليمان أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤م.
٥٣) المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ٢٠٠٤م.
٥٤) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطجاني، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، تونس، ١٩٦٦م.
٥٥) موسيقى الشعر: د/ إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية ــ القاهرة، ط٢، ١٩٥٢م.
٥٦) نَحْو الخليل من خلال مُعْجَمه، الأستاذ الدكتور/ هادي نهر، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠١٨م.
٥٧) النقد الأدبي الحديث للدكتور غنيمي هلال، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ــ القاهرة، ١٩٩٦م
٥٨) نقد الشعر لأبي فرج قدامة بن جعفر، تحقيق: د/ محمد عبد المنعم خفاجي، الجزيرة للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٦ه، ٢٠٠٦م.
٥٩) الوسيلة الأدبية للعلوم العربية، الشيخ حسين المرصفي، مطبعة المدارس الملكية بدرب الجماميز ــ القاهرة، ط١، ١٢٩٢ه.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة	١٩٧٥
تمهيد	١٩٧٩
المبحث الأول: الاستهلال بذكر خبر المصيبة والفاجعة بموت النبيﷺ.	١٩٩٥
المبحث الثاني: الاستهلال ببيان أثر المصيبة بفقده ﷺعلى الراثي.	٢٠٠٥
المبحث الثالث: الاستهلال بالنداء.	٢٠٢٧
المبحث الرابع: الاستهلال بالقسم.	٢٠٤٣
المبحث الخامس: الاستهلال بأداة التنبيه.	٢٠٥١
المبحث السادس: الاستهلال بالاستفهام.	٢٠٦٣
المبحث السابع: الاستهلال ببيان حالة الأمة بعد النبي ﷺ .	٢٠٧١
المبحث الثامن: خصائص استهلال الصحابة في رثائهم للنبي ﷺ.	٢٠٨٥
الخاتمة	٢٠٩٩
المصادر والمراجع	٢١٠١
فهرس الموضوعات	٢١٠٧